مقدمة الناشر

بين هذا الكتاب و بيني قصّة قديمة:

في يوم من ايام سنة 1932، كنت في زيارة احدى العائلات البيروتية فتعرفت هناك الى آنسة في مقتبل العمر كانت برفقة والدتها. ما ان سمعت الآنسة بعض حديثي حتى انتحت بي فجأة، لتطلب مني محاولة اقناع والدتها بان تسمح لها بدخول الدير.

و حدث انني رافقت الام والبنت، بناء على طلبهما، عند عودتهما الى المنزل فسألتني الصغيرة بلهجة لهفي:

- ما رأيك في البنت التي ترغب في اعتزال العالم و الانخراط في الرهبنة؟

و قبل ان افتح فمي، صرخت الام كلبوة فجعت بوحيدها: لا ، لا ! لا اريد ان اسمع...

قلت محاولاً التظاهر بعدم الاكتراث: " ولكنك يا سيدتي قد تكونين مخطئة... من الذي قال لك ان سعادة ابنتك تتحقق عن طريق آخر؟ وهل تظنين ان منعك اياها من تلبية دعوتها كفيل بإسعادها؟

وساد صمت قطعة وصولنا الى المنزل. وبعد ان ودعتهما، لحق بي الفتاة واعطتني كتاب Soi de Jos Schryvers, C.SS.R." "le Don de

الفه كاهن بلجيكي باللغة الفرنسية، مرددة: " انه قد ينفعك!..." وفعلاً انتفعت به نفعاً عظيماً لاني كنت في تلك الاثناء بحاجة ماسة الى مرشد يقوّم حياتي المادية و المعنوية . و قد ظلّ هذا المرشد حتى اليوم مشعلاً ينير حياتي و يهديني باستمرار الى طريق الرب.

بعد نحو سنتين وعلى الطريق العام، في بلدة عالية، تقدمت مني سيدة مسلّمة سلام المعرفة.

قالت: أَلا تتذكرني؟ انا والدة الفتاة التي طلبت منك اقناعي بالسماح لها بالترهب...

- و كيف حالها؟
- تعال و انظر! آه ليتني سمعت منك!

و قادتني السيدة الى المنزل حيث كانت البنت تعاني سكرات الموت، بعد ان اعتل جسمها ووهنت اعصابها و فقدت معنوياتها. و بعد اسابيع قليلة اودعت نفسها الطاهرة بين يدي الرب.

كل ما اذكره حتى اليوم الذي توليت فيه ترجمة الكتاب و طبعه انني طلبت انذاك خمس نسخ منه وزعتها على بعض الاصدقاء. و في عام 1955 خطر لي ان اطلب نسخاً جديدة منه فأجابني الناشر بان الكتاب قد نفذّ. و عبثاً حاولت ان اتذكر اسماء الاشخاص الذين تسلموا النسخ.

هكذا لم يبق لدي سوى النسخة التي اهدتني اياها الفتاة و معها ذكريات ادق مرحلة في حياتي كانت فيها مهددة باليأس، و بالاستسلام لولا قبس من نور الهي اضاء سبيلي و ذّلل امامي الصعاب!

و منذ ذلك الحين عزمت على نقل الكتاب الى اللغة العربية و لكن الظروف لم تسمح لي بتنفيذ مأربي الا مؤخراً.

و فيما انا منهمك في اعداد ترجمة الكتاب متسائلاً هل سيفيد منه بني قومي كما افدت انا، وردتني في 18 تموز 1961 رسالة من بيروت، من سيدة كنت قد تعرفت اليها في الاسكندرية قبل سبعة و عشرين عاماً، تقول فيها انها سعيدة بخلاف ما عرفتها. فقد عرفتها، في تلك الايام، تعسة شقية. و اذكر انني صادفتها مرة في النزل الذي كنت اسكن فيه، و هي تبكي بكاءً مراً و تندب حظها العاثر. كان زوجها قد تركها و سافر، و اخذ معه ولداً من اولادهما و ترك لها ثلاثة آخرين لا معيل لهم. و كانت هي في حيرة من امرها: أتسلك سبيل الانزلاق، ام تتجه الى اللّه؟ و اذكر ايضاً انها بعد ايام قليلة، اخبرتني انها ذهبت الى الكاهن و بعد ان استشارته قررت ممارسة حياة صالحة و الاتكال على اللّه للخلاص من المأزق الذي كانت فيه.

و اخذت هي تعمل، ووجهت بنتيها الفتيتين و ابنها الصغير نحو العمل و الكد و النشاط، و هكذا تمكنت الاسرة من قطع مرحلة صعبة بشرف و استقامة و شق كل من افرادها طريقه في الحياة بنجاح باهر.

و في رسالتها الاخيرة، تقول السيدة ان لها طلباً اليَّ ترجو ان احققه، وهو ان اكتب لها كلمة اهداء على كتاب كنت قد ارسلته لها من بيروت قبل ثلاثة و عشرين عاماً. و كنت قد التقيتها مراراً عديدة دون ان توجه اليّ مثل هذا الطلب.

كان الكتاب احدى النسخ الخمس من كتاب Le Don de Soi فكتبت لها ما يلي:

"تطلبين مني كلمة اهداء. ان بين يديّ تأملاً للاب "شارل دوفوكو" Charles de Foucauld" يعرض بعبارات واضحة المعضلة التي واجهتِها انت بالذات مراراً عديدة: يقول الاب "دوفوكو": " من له ان يخاف يارب و انت تغدق نعمك على الذين يبدون معدّين لآلام كثيرة؟ يارب ما اسهل ان تحوّل الالم الى فرح، و ان تبسط الجبال، و ان تجعل سهلاً ما يبدو شبه مستحيل!"

"سيدتي العزيزة: كل اللذين ، مثلنا، نلتقيهم يومياً، الذين يتذمرون من الظلمة و من صحراء الحياة القاحلة، متعبين، منهكين، و في كثير من الاحيان يائسين، هؤلاء يدعونا واجبنا، نحن الذين اختبرّنا الرب، الى ان نضع امام اعينهم عبارة الاب "دوفوكو" فهي تنيرهم و تساعدهم على اجتياز العقبات و تخطي المصاعب، و على مشاهدة النور و التنعم بالسلام و الفرح و السعادة التي اعلنتِ عنها لي في رسالتك الاخيرة التي افعمتني غبطة و سروراً حقيقيين".

و الآن ، اذ اسوق هذا الكتاب الرائع الى الطبع، اتمنى لكل قارئ يتاح له التأمل فيه، ان ينعم بخيراته الروحية و ان يستمد منه نور المعرفة و الايمان و المحبة الصحيحية.

بيروت في 25 كانون الاول 1961

في نور ميلاد السيد المسيح

جورج ناصيف الريس

<u>ملاحظة:</u>

هذا الكتاب يوزع مجاناً .

و من اراد الحصول على نسخ منه، فليراجع محلات ريس، شارع باستور، الصيفي تلفون 0234692

القسم الاول

المبادئ الاساسية لبذل الذات

الفصل الأوّل

من العدل أن نبذل ذاتنا لله

المقالـــة الاولى

الله مبدأ الاشيـــاء كلها

بذل الذات لله يعني تسليم جسدنا وروحنا اليه، و التخلي له عنن كل قوانا ونزعاتنا ومشاعرنا وأشواقنا و مخاوفنا و آمالنا و مخططات مستقبلنا، بحيث لا نترك لنفسنا سوى الاهتمام بمحبته.

بذل ذواتنا لله يعني أن ننسى انفسنا، و نضع في قلب يسوع كل شواغلنا و كل اهتماماتِنا وآلاف مشاكل الحياة اليومية، ونَكِلَ الى عنايته كل مصالحنا مكلفينه بتدبير كل شيء و تدارك كل نقص.

بذل ذاتنا لله يعني أن نعدل عن الاهتمام بأنفسنا حتى لا نفكر إلا بالله، وان نقِف ذواتنا للأعمال التي تؤول الى مجده، وأن نوسّع بحسب إمكاناتنا مملكة الحقّ والخير، وان نتفانى في خدمة إخوتنا حبا لله، وان نساعد و نعلّم و نقوّي و نعزّي ، و خصوصاً أن نهدي الغير و نقودهم الى الله.

بذل الذات يعني الخضوع الدائم للمشيئة الالهية وسط كل الحوادث وكل التحوّلات والتغيّرات الخارجية والداخلية، والاذعان الساذج البنوي لكل مشيئات الآب السماوي، والاستسلام التام لك التدابير الممكنة التي ترتضيها العناية الالهية.

طوبى للنفس التي أسلمت ذاتها ليسوع بسذاجة، لان يسوع يهب لها ذاته بدوره. إنه يستولى على النفس التي تحبه ويأخذ بيده مصالحها ويعفيها من كل الهموم التي كانت تشغلها، ويحميها من كل اعدائها، و يخلّصها من كل الاهتمامات، و يقيها كل الاخطار ولا يطلب منها مقابل ذلك سوى ان تعطيه قلبها.

هكذا يكون العطاء المتبادل بين يسوع و النفس، عطاء مبنى كله على المحبة. ما أجمل هذا العطاء المتبادل ، حياة الحب المفعمة جواذب سرية للنفوس الطاهرة و القلوب الكريمة.

ما اسعد وجوداً لا يكون فيه الانسان لذاته بل يكون موهوباً كله ليسوع الذي يُترك له أن يتصرف بخليقته كما يشاء، فتكتفي هذه بأن تحبّه.

ما اشهى ان يشترك الانسان في عمل المسيح، أن يرى نفسه قد كلّفه يسوع بالسهر على مصالحه، _ له المجد_ و ان يتفاوض معه في طُرق انتزاع نفوس خالدة من براثن الجحيم.

ما ألذّ السلام و ما أصفى السعادة التي يجدها المرء عندما يستطيع أن يغوص في كل آن في مُحيط الالوهية الذي لا حد له، فيحس فيه أنه بعيد كل البعد عن جميع الترّهات التي تشغل نشاط البشر.

ما أحلى ذلك المصير الذي تؤول اليه النفوس الحسَّاسة و القلوب المحبة عندما ترى أنها قُبلت في إلفه يسوع الالهية فتشترك في أفراحه و تقاسمه متاعبها، عندما تعوّضه بحنانها عن عقوق البشر.

يا يسوع! انني أروم أن اكون في عداد هذه النفوس السعيدة. أروم أن اعقد معك عهداً أخوياً، فأعطيك قلبي كله لأمتلك قلبك كله، و أفني في محبتك قوى كياني كلها ثم انسى ذاتي معك و ارافقك الى اقتناص النفوس. إِنه لحلم سماوي جميل.

هذا الحلم الجميل، بوسع كل واحد ان يحوّله الى حقيقة عذبة. و حسبه لذلك أن يسير في طريق الحق؛ حسبه ان يرجع الى الله في كل حين بفعل محبةٍ و أن يردّ له الكيان الذي أخذه منه.

إن الله هو مبدأنا. فهو الذي خلقنا ، وهو يحفظ لنا الوجود و يشترك في كل اعمالنا. هو يعمل في كل وقت في قوانا و حواسّنا و كل خليّة من خلايا جسمنا. فلنعترف بمحبةٍ بسامي سلطانه: ان في ذلك بذل الذات.

ان العمل الالهي يسري في افكارنا و عواطفنا كلها، و انفعالاتنا و مشاعرنا و اعمالنا كلها. هو يسند كل خليقة و يشترك في كل حركة من حركات كل واحد من ملايين الكائنات المنتشرة في الكون. فلنستسلم بلا خوف الى

العناية الالهية و لنمتثل بمحبة لإرادة الله السامية التي لا يستطيع احد ان يتفلت منها. ان في ذلك ايضاً بذل الذات و القداسة.

حياتنا تجري في حضن الله. فإنه حاضر في كل مكان بجوهره الالهي، حضوراً حقيقياً كما هو في السماء. فلنلقين ذواتنا بين ذراعيه لأن الكمال هو أن نتركه يحملنا. الحياة الكاملة أن نحيا على صدر الله كما يحيا الطفل على صدر امه. لنلق عليه همومنا كلها و لنكل اليه أمر تدبير حاجاتنا مكتفين بمحبته: فتلك هي الحياة الروحية و مقدمة حياة المحبة الخالدة.

المقالة الثانية

الله غاية الاشياء كلها

ليس الله مبدأ كل الاشياء فقط، بل هو أيضاً غاية كل المخلوقات عموماً، و كل كائن على وجه التخصيص. إن لأقلّ حشرة كامنة تحت ورقة، هدفاً في الوجود كما لحيوانات الغابة الضارية. ذرة الغبار المتطايرة في الهواء لها هدفها كالأجرام اللامحدودة التي تجوب الفضاء، أَوضَعُ البشر، و العبدُ المجهول التائه في قلب الصحراء، له غاية يحققها أُسوة بالملك الحاكم في مقدرات الناس.

كل ما هو مخلوق من رفعة و عظمة و استحقاق يتوارى امام الله ذي الجلال اللانهائي. و كل كائن، بما انه من خلق الله، مدعوّ ليحقق ما قُدرّ له على هذه الارض، ووجوده فيها يكون لأجل الله: " أنا الالف و الياء، البداءة و النهاية، الاول و الآخر يقول الرب".

ان الكائن غير العاقل و غير الحرّ يحقق بصورة حتمية الهدف الذي حدّده له الله. اما الانسان فقد نال وحده من الله ذاك الامتياز الخطير، ان يبلغ غايته باختيار ارادته الحرة. فإنه، على مثال الله، يعرف الخير والشر؛ يعرف أن عقله أعطي له ليدرك الحقيقة و أن إرادته أعطيت له ليتعلّق بالخير الاسمى. فاذا امتثل لهذا الترتيب الالهي ، و استسلم لإرادة الله هذه، و اعاد الى الله، بفعلٍ تلقائي عفوي صادر عن قلبه، الكيان الذي اخذه منه، حقق الغاية التي لأجلها خُلق.

غاية الانسان ان يبذل ذاته لله بحسب تدبيره تعالى: ذلك واجبه الاول و الاخير الذي يحوي الواجبات كلها.

كل انسان يبلغ سن الرشد يحد ذاته، في كل عمل من اعماله الحرة أمام هذين الأمرين: مراعاة النظام الالهي او تشويشه وكل انسان يختار، لزاماً، موقفاً من هذه الموقفين: فقد قال يسوع المسيح: " من ليس معي فهو عليَّ".

مسكينة هي النفس التي ترفض طاعة الله! فإنها تحكم بذلك على ذاتها بالاضطراب و الحزن و الشقاء، فالتشويش لا يولِد السلام. اني ارى في كل مكان نفوساً شقية و أُسراً مفككة و دولاً في فوضى. في كل مكان يسود الاضطراب لان الناس يرفضون طاعة الله. لقد استقرت الثورة بصورة دائمة في المجتمع العصري: فهي ذلك الاستياء الدائم لأنها تمرّد على النظام، على السلطة، على الله. لكن كل مخالفة تحمل عقابها في ذاتها، وهذا العقاب هو إعادة النظام الذي جرى تجاوزه.

فإن الله يبلغ دوماً الغاية التي ارادها: إنه يمسك بيده العالم كله و كل ما فيه، فلا تستطيع أيه خليقة ان تُفلت من سلطانه الاسمى؛ وهو لن يعطي مجده لآخر." انه يبلغ من غاية الى غاية بالقوّة ،و يدبّر كل شيء بالرفق" فتعاقُب الممالك، وازدهارُها وسقوطها، والحوادث التي ملأت تاريخ العالم، والحروب، و الانقلابات و الاكتشافات: ذلك كله قد اراده الله ووجّهه الى غاية هو يبتغيها.

رجال كثيرون ظنوا انفسهم يحكمون في مصائر العالم، لكنهم كانوا أدوات غير واعية بين يدي العامل الالهي. لا يتم على الارض شيء لا يستخدمه الله لبلوغ غايته. فقد يُحدث الشر اضراراً كثيرة؛ وقد تفسد المجتمعات او تنصرف عن عبادة الله فتجدّف على اسمه القدوس، و قد يرتدّ الناس، في كبرياء جنونية، ضد الله فيقصونه عن قلوبهم وعن عائلاتهم . و قد يسمح الله بأن يكون لهم ظاهر نجاح؛ و قد يدع كنيسته تضطَهد وخدامه يعيَّرون جهراً؛ وقد يسمح للتجديف بأن يمشي رافع الرأس و للرذيلة بأن تجيل نظرها الوقح في كل مكان. لكن لصبره حدوداً، و يأتي يوم الحساب، فيُلزَم الخطأة بتأدية المجد لله عن اضطرار بعد أن رفضوا أداءه تلقائياً.

يا يسوع! إني لا اريد ان انتظر هذه الساعة الرهيبة لأمجدك. لا أريد أن انتظر حتى أُجبر بالقوة على ان أؤدّي لك اكراماً تقتضيه العدالة. إنك غايتي الاخيرة، وهدف كل وجودي؛ فبفعل حرٍ من ارادتي أُسلم اليك ذاتي. و سأجدد هذا الفعل كل مرة تنعم عليّ بذلك، جاعلاً منه بداية حياتي الروحية و نموّها وكمالها.

المقالة الثالثة

الله هو العلة المثالية لكل الاشياء

ان الله هو مبدع الخلائق كلها و غايتها. وهو ايضاً علتها المثالية. لم يكتفِ بتعيين نقطة الانطلاق و خاتمة الرحلة التي تقوم بها الخليقة على هذه الارض، بل رسم لها ايضاً الطريق التي يجب أَن تسير فيها.

فهو إِذ صنع الانسان على صورته و مثاله و أعدّه ليعيد في ذاته خطوط رسمه الالهي، قد أراد ان يكون مثاله غير المتناهي في الكمال.

و الانسان، ككل خليقة أخرى، يعيش في الله منذ الازل "وفيه _ أي في الله_ يقول القديس أغسطينس، تكمن عِلَلُ كل ما يحدث و المبادئ الثابتة لكل الاشياء المتغيّرة، و الاسباب العقلية الازلية الحية لكل الاشياء غير العاقلة و الزمنية".

إن الله يرى في عقله منذ الازل، كل الكائنات التي يستطيع خلقها و التي سيخلقها في الواقع، و كل منها كائن في عقله بطبيعته الخاصة و بدرجة الجمال و الكمال التي عليه ان يبلغها.

في هذا العقل الالهي حُددت سابقاً الطريق التي ستقطعها كل خليقة على الارض، ووقت ظهورها في العالم الحقيقي، و الدورُ الذي ستقوم به وهدفُ الوجود الذي تحققه فيه، ووقت زوالها. كل تفاصيل وجودها المستقبل مسجّلة بوضوح في ذلك العقل و حرية الكائنات العاقلة لا تعطّل في شيء هذه الدقة الالهية، فالماضي و المستقبل حاضران امام الله.

وانتِ ايضاً يا نفسي، قد ميّزِك الله منذ الأزل. لقد رآكِ في جوهره، بين عدد لا يحصى من الكائنات، لا كجزء منه بل كصورة ممكنة لكماله غير المحدود، و كنسخة مستقبلة لجماله الالهي. و منذئذ عيّن الخطوط التي ستميزكِ عن كل خليقة أخرى، و سبق فعرف نوع المناقب الذي يكون لكِ في عينيه، والجمال والكمال اللذين سيخصّانك دون سواك.

وحدّد في الوقت نفسه بدقة غير متناهية، الطريقة التي تبلغين بها هذه القداسة. ورسم السبيل الذي تسيرين فيه على الارض، وعيّن المؤهلات والوسائل التي تكون في متناول يدك و المساعدات التي ستقدَّم لك و احوال الزمان والمكان الخارجية التي تعيشين فيها، و الناس الذين تتصلين بهم، واتفه الحوادث المؤثرة في حياتك.

إنه سبق فعرف المصاعب التي تلاقينها في ممارسة الفضيلة في اعماق قلبك، و تلاعب اهوائك، و جهاداتك ، و سقطاتك، و انتصاراتك، و الصبر اللامتناهي الذي تقتضي ان يبديه تجاهك.

لقد بارك بفرح منذ الازل اخلاص ارادتك، وحماسة واستقامة قلبك. وحَسَبَ افعال المحبة الكثيرة التي ستخرج من قلبك كما تتدفق المياه الصافية من نبع غزير. و منذئذ فرح بالألفة التي تكون يوماً بينكما.

لقد شغلتُ فكر الله منذ الازل. انا الخليقة الصغيرة الحقيرة. فأَحبني إذ لم أكن استطيع بعدُ معرفته و اختّص بذاته العناية بتقديسي. لقد خطَّ لي الطريق وهو يمسكني بيدي حتى لا أَحيد عنه الى اليمين او اليسار.

أيها السيد القدير! إنك تدبر خلائقك بإشفاق كثير وتسهر عليها بعناية ابوية. انك تشفق أَن يبتعد ابناءك عنك فيهلكوا. فأنعم عليّ بأن أحبك دائماً.

المقالة الرابعة

خلاصة الفصل الاول

اللّه مبدأي، فعلى عقلي أَن يعترف له بسيادته المطلقة عليّ، واللّه غايتي، فعلى ارادتي أَن تبذل له ذاتها بلا تحفظ. اللّه مثالي، فيجب ان تكون حياتي كلها نسخة عن هذا المثال الالهي.

إِنني ، تجاه اللّه، في وضع خضوع مطلق و شامل، فلا يكفي ان اعبده معفراً جبهتي بالتراب، كمبدع وحيد لكل ما هو في الوجود؛ لا يكفي ان أَنزع اليه بكل قوة نفسي كلما نزع الى الغاية الوحيدة لوجودي، بل يجب أيضاً أن اتبعه خطوة خطوة، في كل لحظة من حياتي، و أن استسلم لقيادته ، و ان اتركه يتصرف بي كسيدٍ بحسب مشيئته.

نعم، يارب، انك تريد أَن ابذل لك ذاتي لا بتقديس نفسي فقط، بل بطريقة هذا التقديس ايضاً . انه ليس سيان عندك أَن اتبع هذا الطريق او ذاك لأبلغ السماء، فقد رسمت لي الطريق انت نفسك، منذ الازل.

ليس في حياتي حدث لم تسبق فتعرفه بحكمتك وترتبه بعنايتك. ليس لي ما أغيّره ولا ما أضيفه، ولا ما احذفه. ليس لي ان أتوق الى مصير غير الذي أعطي لي. ليس لي ان اتحسر او اشتكي. لا يحق لي ان اسألك عن اسباب تصرفك تجاهي، ولا ان اعرف لِمَ خَلقتني بهذه الطباع وبهذه المؤهّلات، أو بذلك العجز وبهذه الاهواء، بهذه الثورات الداخلية أو بهذه النزعات. لستَ ملزماً بأن تفسّر لي لَم اوجدتني على الارض في هذا الزمان لا في زمان آخر، و في هذا المكان المعين وهذا المحيط وهذه الظروف المؤاتية او غير المؤاتية.

يا إِلهي! سواءً جعلتني غنياً او فقيراً، عالماً أو جاهلاً، شريف الاصل او خامل النسب ومجهولاً ومحتقراً؛ أو اعطيتني نعماً و انواراً منعتها عن غيري، و حوّطت نفسي بحمايات لم تعطِها لآخرين: فعن هذا كله، ليس لي ان اطلب منك حساباً. ففي هذا كله تكمن مقاصدك الازلية بشأن نفسي، وعليّ ان اتقبلها و ان أقدّس ذاتي بموجبها.

يا نفسي! كم كنتِ عائشة في الاوهام عندما كنتِ تضَعين لذاتكِ بذاتك مناهج القداسة، عندما كنتِ تحلمين بمعزل عن مقاصد الله، بكمال عيشةٍ و أعمال و أنوار و تعزيات وصلبان لم تكن لكِ. كم كنتِ تضلين عند اتباعك مسالك ضيّقة فيما خطّ لكِ الله نفسه، منذ الازل، جادةً عريضة واسعة!

لا، لا تسألي المارّة فيما بعدُ عن الطريق الحقيقي الذي يُفضي الى الله لأنهم لن يعرفوا بمَ يجيبون. إنهم يعرفون مصيرهم و يجهلون مصيرك. فسيري انتِ غير هيَّابة، فالله معكِ، لا يطلب منك سوى الطاعة والخضوع لإرادته السامية.

هذا المصير الذي عيّنه الله منذ الازل لكل نفس، قد عُيّن لها في الزمان. حياة الانسان تنبسط كلوحة واسعة سُجلت فيها سلفاً كل الحوادث و الاحوال و الاحايين يقول الله: أُعبد و ارضَ. والنفس البسيطة تجيب: إنني ارضى واحب و استسلم لما تفعله. اماَّ النفس اللامبالية فتمرّ من غير ان تحفل بالكنز الذي تهمله وبالكرامة التي تستخفّ بها و النفس المقاومة تلعن و تجدّف. لكن عمل الله يستمر، جالباً معه في كل برهة واجباً جديداً، و مقدّساً بلا انقطاع النفس التي تستسلم له.

انني استسلم لك و اخضع لإرادتك يا إلهي، يا مبدأ كياني و غاية وجودي و مثال عملي.

مهمتي ان اتبعك خطوة خطوة، كالولد الذي يمسك بيد أمه، انا لا اريد ان اسبقك ولا ان أبقى الى الوراء. سأسير على خطاك متمماً واجبات اللحظة الحاضرة الصغيرة، وقابلاً الصلبان التي تأتيني بها، و مستسلماً في كل ما تبقّى، لإرادتك و مقاصدك الحاضرة او الآتية بشأن نفسي.

انا اعلم ان كل ما يأتي من يدك حسن، لأن كل شيء قد سبقت فعرفته و نظّمته عنايتك الالهية.

الفصل الثاني

من الحكمة ان نبذل ذاتنا لله

المقالة الاولى

ان الله يهتمّ بتقديس النفس المستسلمة اليه

بذل الذات لله هو تقديم كل الكيان له بفعل محبةٍ مضطرم؛ ثم نسيان الذات و عدم الاهتمام المطلق بها و تكليف الله بتدبير كل شيء. إنه تسليم تام لله.

انا اعرف ان الحكمة البشرية تحتج على كلمة التسليم هذه؛ فقد تروم ان تُقيم بعض التحفظات، و ان تطلب ضمانات، و ان تضع على الله شروطاً. أَلا يظهر أَن عملية التقديس على هذا النحو تصير كصفقة تجارية بين الله و النفس، كعقد ثنائي يحاول فيه الفريقان المتعاقدان تأمين مصالحهما الفردية قبل كل شيء. لننبذ هذه المفاهيم الحقيرة لأنها من وحي حكمة الجسد.

ان نستسلم لله جسداً وروحاً، و نرتمي فيه كما يرتمي الطفل على عنق امّه، و نحبّه، فنقول له ذلك و نردده بلا انقطاع: ذلك هو الكمال، ذلك هو سرّ القديسين، ذلك هو فن الاستيلاء على قلب الله.

ان يسوع لا يريد أن تُشغل النفوس _ عرائسه_ بشيء آخر غير محبته و إظهار هذه المحبة له. خدّام كثيرون يملأون قصره. فإذا كانت ثمة مهامّ يُضطلع بها و اعمال تُتمم و مستقبل يُدّبر و شرور تُستدرك، فإنه يكلفهم بها. اما العروس فيجب ألا تترك عريسها. لان مهمتها هي ان تفتنه بصفاء نيتها، و برقة محبتها، و بأمانتها.

أترى ملك الملوك تنقصه القوة والحكمة و الطيبة، حتى تخاف النفس على مستقبلها؛ اننا لو نظرنا الى اهتمام بعض النفوس، القلقة، لظنّنا ذلك!

ايها السيد المعبود! لقد صممتَ منذ الازل ان تقدسني ولم تُبدع الكون إلا لتخلصني. و متى بلغ آخر المختارين درجة المحبة التي أعددتها له، سيذوب الكون كما تتفكك آلة متقنَة لم تبقَ منها فائدة.

ماذا تهم الله آلة العالم هذه، مهما بلغ إِتقانها؟ بوسعه ان ينشئ بلا عناء ألوفاً أخرى أعظم و اجمل منها. هي النفوس التي تشغل فكر الله. والحوادث التي تستغرق اهتمام الناس. و الثورات، والانقلابات و تتابع الممالك، هذه كلها في نظر الله ألاعيب اطفال. إن النقاوة المحفوظة أو المستعادة، وفعل المحبة الواحد، و القصد بأن نكون له، و التنهد المصعَد نحو قلبه، و صلاة واحدة: هي التي تجعل السماء تتحرك.

لقد قال يسوع لإحدى القديسات:" إِنني مستعد أن احتمل عذابات آلامي كلها مراراً تساوي عدد النفوس الهالكة. ولكن، و احسرتاه! إِنها ترفض الخلاص المعروض امامها" و انت يا نفسي، المستسلمة ليسوع بدافع المحبة، كيف تخافين؛ هل الام، التي تسند خطوات ولدها الاولى، تترك هذا الولد يقع في التراب؟ و أنتِ تمدّين يدك ليسوع و تخافين أن يهملكِ في نصف الطريق!

إن الله يريد تقديس النفوس. من أجلها يترك المجتمع قائماً رغم الدود الذي ينخره، من اجلها يتغاضى عن المجدفين على اسمه القدوس و الناكرين عنايته و المثيرين غضبه الالهي: فلا يسوع أن تتضرّر الحبة الجيّدة عندما يُقتلع الزؤان.

ان الله، من اجل النفوس التي ستُقدّس، يدبر الكون و ينظم تتابع الفصول و يُهطِل امطاره على حقل الصديق كما على حقل الخاطئ.

الرب عظيم و جدير بكل تسبيح. إِنه، في العالم كله، لم يخلق كائناً، و لا يسمح بأي حادث، ولا يصبر على أي سوء، إِن لم يكن ذلك آئلاً الى خير النفوس.

فهياً يا قلبي ! دع صغر النفس و توكل على الله. أغمض عينيك و استسلم لذراعيه. ألم يقل يسوع: لا يستطيع احد ان ينزع مني اولئك الذين اعطانيهم الآب؛ أَحبَّ إِلهك، اصنع كل شيء بمحبة، تقبَّل كل شيء من يده، ثم تقدّم غير هياب فتصل الى القداسة بأمان.

المقالة الثانية

ان الله يضع حكمته وقدرته في خدمة النفس المستسلمة له

ان الله يريد تقديسك، ألعلّه يجهل ما يوافق نفسك؛ ألا يجب أن تنجد حكمته بأنوارك؟

ايها الانسان! أَعفِ نفسك من هذا الاهتمام غير المجدي. فانت لا تعلم من أَين اتيت و تجهل الى اين تذهب.

هل كنت حاضراً عندما رتبت الحكمة الالهية الكون، و رسمت للكواكب سبيلها، وقالت لموج البحر: لن تعدوَ الى ما ابعد؛ هل طلبت مشورتك عندما خلقت النفوس الخالدة بنفخة من فمها، و طبعتها بصورتها؟

إِن خلق النفوس على مثال الله لعملٌ يفوق الانوار المخلوقة، والله قد اختصّ بذاته هذا الاهتمام فاخشَ اذن ان تشوش عمله.

نفسك تحفة كمال وجمال. كل ما فيها من شعور وعقلٍ وارادة و نعمةٍ وفضائل، و مرونات والهامات، ذلك كله مرتب بطريقة مدهشة. ذرة غبار تستطيع ان تعرقل سير هذه الآلة العجيبة. فهل تروم ان تتدخل بإِرشاد مَن ابدعها بهذه الدقة؟ أنت أعمى و تريد ان تقود ذاتك! تراقب بقلق قيادة الله لنفسك و تعترض على الحركة التي يدفعك اليها و الهدوء الذي يتركه لك. يا أحمق! أنتَ لم ترَ هذه النفس التي تريد ضبطها. فدَع عنك هذا الاهتمام الصعب لله، فهو لم يرسم لك سوى أمرٍ واحدٍ وسهل: أن تحبّه؛ واحتفظ لنفسه بما هو صعب. فاقنع بنصيبك ودع الله يُحسن فعل ما تبقى، فهو لا تنقصه الحكمة و لا القدرة.

ان عمله يشمل العالم من اقصاه الى اقصاه و يداخل المخلوقات كلها حتى اللب، حتى الجوهر. فهو الذي يخلقها و يحفظها و يحركها.

هذا العمل الالهي يملأ الكون: صحيح انه عجيب وخفي، صحيح ان الايمان وحده هو الذي يكشفه، و لكن هل هو، لهذا السبب، أقل واقعية او اقلّ فعالية؟

ان ما رسمه صلاح الله لتقديس النفوس و ما امرت به حكمته لإبلاغها هذا الهدف الاسمى، تحققه قدرته الالهية.

ايتها النفوس التقية: إن الله يشغل بتقديسكن و قدرته تفعل في هذه الآونة عينها و انتنَّ تخضعن لفعله القدير: كل ما يجري فيكن و خارجكن من الحوادث يغدو لكنَّ أدوات للنقش و التجميل: الافراح و الاحزان، النجاح وخيبات المساعي، التعزيات و الضيقات، الآمال و المخاوف، ذلك كله يتحول الى اداة بين يدي ذلك العامل البارع.

انه ينتقي بذاته مساعديه في هذا العمل الالهي، فإن احتاجت النفس الى مرشد ليقول لها الكلام اللازم، أرسل الله هذا الانسان من اقاصي الارض ومهّد امامه الجبال وهدّأ امواج البحر، وان دعت الحاجة فان الله ذاته ينقله كما رفع حبقوق قديماً ووضعه بقرب جب الاسود. ان النفس المحتاجة الى مثل هذه المساعدة لا تُحرَمُها ولو اقتضى ارضاؤها قلب نظام الكون.

ان عمل الله في تقديس النفوس ذوات الارادة الحسنة لا يعرف حدوداً، ولا تستطيع خليقة ان تمنعه او توقفه لأنه لا يعبأ بالصعاب و يتجنب الحواجز او يحطمها، و يجبر اعداءه على ان يكونوا ادوات بين يديه. ان العنف يتلاشى امام صبر نفسٍ مستسلمة لله، و الحيلة ترتبك في شباكها امام بساطة هذه النفس، و الكذب يُرتَج عليه امام براءتها الساذجة. و ما كان يُظن خراباً للنفس البسيطة يصبح لها خلاصاً، و ما يُحاك بكل دقة للنّيلِ من فضيلتها على حين غرّة يثبتها في الخير. امامها تنفتح الحواجز و تنخفض الجبال و تمتلئ الوديان و تتحول المهاوي الى طريق واسعة ممهّدة، فلا سبيل الى ايذاء نفس مستسلمة لله، ولإيقاع تلك التي تسير متوكئة على ذراع يسوع!

يا نفسي، ابذلي ذاتك لله، احبيه غير متراجعة، انسي ذاتك فان الله صالح و حكيم و قدير، القي على الرب همّكِ و هو يعولك.

المقالة الثالثة

عمل الله في النفس مليء بالأسرار

ربي! انني لك، و أُسَرّ بان أحسَب ذاتي كولد صغير بين ذراعيك. و اضع في قلبك الابوي همومي كلها.

اريد ان اتلاشى في التأمل بقدرتك الالهية وفي ضعفي المتناهي. فهذه الفكرة تحرّرني من انانيتي ومن اهتماماتي، و تجعل في نفسي حرية مقدسة و عزّة بنوية.

يا نفس! انك في عمل تقديسك لا تستطيعين شيئاً، حتى انه لا يمكن ان تفتكري فكراً صالحاً للخلاص. فالنعمة التي هي جوهر كيانك الفائق الطبيعة، ليست الا عطية من الله، وهي تفوق مدى ادراكك حتى انه ليس باستطاعتك تفهم فعلها.

ان فعل النعمة خفيّ كالنبع الذي يصدر منه: النعمة تأتي و تذهب و انت تجهلين انها قد مرّت بك. انها تتغلغل في مواهبك وفي افعال هذه المواهب، لكن عملها يبقى سرّياً. فعل النعمة تارة يهدر كالسيل و يصبّ في النفس امواج نور و محبة:" و من نهر لذّاتك تسقيهم" ، حتى تصبح النفس مغمورة به فتصرخ مع القديس فرنسوا كزافييه:" حسبي يا سيد، حسبي، فما عدت قادرة على احتمال تعزياتك". و طوراً تجرى النعمة في النفس كالماء في ساقية هادئة، فتسقي القوى و تلج الحواس و تُروي الافعال، فينمو كل شيء و يتوسّع و يزدهر بندى مفعولها. و كالحقل الخصب تعطي النفس لله غلة وافرة.

و احياناً اخرى تكون نغمته لطيفة كالنسيم فتمر مداعبة النفوس و تلاطفها و ترفعها و تحملها معها الى اجواء عُليا، فتحس النفس انها في التعزية و السرور وقوة العزيمة. و تغدو وكأن حضن الله قد اصبح لها مقاماً عادياً و مضجعاً لراحتها. لكن هذه الرؤيا السعيدة لا تدوم، اذ لا تلبث ان تتجهّم السماء و تتلبد الغيوم و يتوارى وجه الله الضحوك فتبقى النفس وحدها. بلا نشاط ولا مشورة: فتثور الشهوات وتصدمها الحوادث و يضطهدها الناس. ايها السيد المعبود! اين انت؟ اتُراك تترك السفينة الضعيفة تغرق؟ كلا ان الله قريب، يسهر و يقوّي

الايمان، و ينقي الرجاء، و يضرم المحبة، و لكن بطريقته الالهية. يا لفعل الله! من يستطيع ان يكشف اسرارك؛ من يستطيع ان يتتبعك في سيرك الجبَّار؛ انك تطوف الكون، وتدوس بقدميك الجبال. وتقطع الصحاري فيشعر العشب الصغير بمرورك. انك حيثما تمرّ تُحيي وتبعث و تخفض وترفع. فمن ذا يكشفك لأعيننا و انت تستعمل المخلوقات كحجاب؛ و تستتر وراء أَخس المظاهر كاستتارك وراء ارفعها. ايها الفعل ألالهي ! من يستطيع الافتخار بالنفاذ الى سرك، و بإِدراكك، وبحجزك في اشكال محسوسة او بتنظيم سيرك؟ فانت تارة نبع متدفق، وطوراً سيل سريع، و نهر صاخب وبحر عميق.

يا نفسي، لا تحاولي ان تفحصي اعماق السر الالهي. فليس لكِ ان تعرفي فعل الله تحلّليه. واجبك يقتصر على عدم معاكسة هذا الفعل الالهي، و ان تفتحي عندما يطرق بابك، و ان تستقبليه بمحبة مهما كان نوع التنكر الذي يظهر فيه. إِن فعل الله قدير كل القدرة و هو يقدّسك فاستسلمي له، احبي الهكِ، و باركي في كل وقت اسمه القدوس ودعي له الاهتمام بترويضك على الكمال.

المقالة الرابعة

ان الله يصنع العجائب في النفس المستسلمة له

عندما تستسلم نفسٌ للّه بلا تحفظ، متخلية عن قيادة ذاتها و مرتميةً فيه بوَلَه، يرى اللّه ذاته ملتزماً بأن يتعهدها هو نفسه، فيَصبح امرُ تقديسها شغلاً خاصاً به تعالى. ومنذئذٍ تشرع قدرته في العمل لتبلغها الكمال.

كل خليقة هي طيّعة بين يدي اللّه: فهو قادر ان يجعل من القلب القاسي قلباً سيرافيمياً. بدونه لا تنفع الكفاءات الطبيعية كلها شيئاً، و به تتحول كل النقائض الى فضائل، بدونه ينفخ العلم و يُهلك ، وبه يتبدّد الجهل امام المعرفة. لا يحتاج اللّه لينشىء قديساً الا الى قلب ذي ارادة حسنة.

ان قطرة الندى، و ذرة الغبار، والحشرة المخبأة تحت العشب تثير امام العالمِ مشاكل لا سبيل الى حلّها. ملايين الميكروبات التي تعجّ بها قطرة الماء، تملأ عقله ذهولاً، كما تملأه ملايين العوالم التي تتحرّك في رحاب السماوات. الارض و البحر ممتلئان بالعجائب و المشاكل العويصة و الانسان نفسه هو بذاته اعظم الاسرار: من يستطيع تفسير حركات حواسه الداخلية و الخارجية، و سير قواه الروحية، وميول قلبه و نزعاته؟ من تُراه سبرَ غورَ طبيعة النفس، تلك الروح المتصلة بالمادة.

وكلما ارتقينا في سلّم الكائنات كثرت العجائب و اكتنفت الاسرار عقل الانسان وتحدَّته. و ما عسانا نقول اذا تخطينا عتبة العالم الفائق الطبيعة؟ و ماذا نقول خصوصاً عندما يكشف امامنا عالمُ الارواح جمالاته و سناه؟

عجيب اللّه في قديسيه! انه يعمل في كل نفس تنقاد له و كأنها وحيدة في العالم، و يستعمل في تجميلها قدرته اللامتناهية و ينتقى لها اجمل الحُلل، بعناية العريس و سخائه نحو عروسه. انه يجملها بكل نعمة ليجعلها فاتنة ساحرة، و يخصص لتزيينها سنوات طويلة ، لإغنائها، و أخيراً يصرخ وقد فتنه جمال صنعته: كم أنت جميلة أيتها النفس، يا حبيبتي، كم انت جميلة".

كل نفس عالمٌ جديد من العجائب: فان الله لا يصنع نسخاً لأعماله، و ليس بين تحفه واحدة لا تختلف عن الاخرى بل كل " نجم يمتاز عن نجم آخر بالمجد". والله يحب ان يكثر عجائبه، فهو يشيعها بسخاء في عالم النفوس حيث لا يظهر شيء فوق القياس في الفن او في الجمال. و لمَ يمسك الله يده في توزيع نعمه؟

أليس هو الله القدير؟ او ليست النفوس المستقيمة بناتٍ له يحبهن محبة رقيقة بحنان؟

يا نفسي! انك لتجهلين الطريقة الرائعة التي بها يدرجك الله في الكمال. أنت لا ترين في وجودك سوى افعال الله تتتابع لا قيمة لها، و تضحيات صغيرة و مشاغل تافهة. و مع ذلك، فبهذه الطريقة يصورّ الله فيك صورته المعبودة. تميلين الى الصلبان الكبيرة، والى الاعمال البطولية و تسعَين لتبذلي حياتك في سبيل ارضاء الله؛ امَّا هو فلا يرتضي هذه الطريقة. انه لا يريد ان تقدسي الآن، بالإماتة أو باضطهاد الاشرار، بل بتبادل الاحاديث وبالراحة و التسلية و بآلاف تفاصيل و اعمال الحياة اليومية التي تعيّنها لك الطاعة. فعندما تهملين تفصيلاً من فرائضك المقدسة او واجباً صغيراً من واجبات حالتك الحاضرة، قد يكون الله منهمكاً في اعطائك مسحة من جمال خاص، فعدم انصياعك يعرقل عمله هذا.

تظنين أَنك تساعدينه عندما تستنبطين طريقة جديدة في التقديس، و تنقبين في سير القديسين و تقرئين الكتب الروحية بنهَم و مع ذلك فليس هذا ما يقدّسكِ. بل بذلُ ذاتكِ في كل وقت بفعل محبة سخي.

كان للقديسين هدف اسمى يبلغونه، لكنه ليس هدفك انتِ. و الله رسم لهم طريقهم، لكنها ليست طريقك. و الكتب الروحية لا تنفعك ان لم تقرئيها بأَمرِ الله، وبمعزل عن هذا الامر الالهي فالقراءة لا تبني و إِنما تهدم؛ ولا تقرّب الى الله بل تبعد عنه؛ ولا تعلم بل تثير الفضول الباطل ولا تهدي بل تقود الى الضلال.

يا نفسي. لا تبحثي عن القداسة بعيداً عنكِ فهي تحيط بك من كل جانب. الخلائق كلها تأتيكِ بها، حوادث الحياة جميعاً مملؤة منها والهواء الذي تتنشقينه مشبع بها. فافتحي فمك و تنشقي القداسة ملء رئيتك. ان ما يبتغيه الله منك يُبلَّغ اليك في كل لحظة بواجباتك اليومية، و بمعزلٍ عن هذا الواجب اليومي ليس لك قداسة ولا سعادة. فاقبلي ارادة الله مهما كانت الظواهر التي تسترُها حقيرة. تقبّليها فخورةً و افتحي لها باب

قلبك على مصراعيه لأنها رسول الله اليك. فقد تكون حاشية هذا السفير وضيعة جداً و حقيرة في عيون الناس، فلا تأبهي بذلك؛ فان الله هو الذي يعبر فيها. ما يأتيكِ به هذا الغير قد يظهر لك قليل الاهمية، ولعله معاكساً لتفكيرك او مناقضاً لذوقك. فلا تكترثي لذلك، ان هذا الآتي باسم الرب هو رسول الله، ابن داود. فاحمديه، وافرشي ثيابك امامه و عفّري جبهتك بالتراب واعبديه و اهتفي مع القلوب البسيطة المستقيمة :" هوشعنا لابن داود، مبارك الآتي باسم الرب".

المقالة الخامسة

ان في كلمة الله وحده مثال قداسة النفس

ان كلمة الله هو المثال الذي يجب على الخلائق كلها ان تبلغ كمالها بالاحتذاء به. كل نفسٍ تحيا منذ الازل في هذا العقل الالهي، بجمالها الخاص و سمتها الشخصية التي من شأنها ان تميزها عن كل نفس اخرى.

بيد أَن هذا المثال يسمو طبيعتنا البشرية سمواً لا حدّ له، لذلك جعله الله مناسباً لضعفنا. فتجسد ابن الله، و صار باكورة الخلائق كلها و نحن قد سبق الله فحدد ان نكون مشابهين لصورة ابنه الالهي.

فالإنسان الاله ، يسوع المسيح، هو المثال الالهي المتأنس الذي يجب أن نقدس ذواتنا وفقاً لصورته. مع ان هذا المثال غير متناه في الكمال. فان امكانيات الاقتداء به لا حدود لها و الله يريد ان يتمثّل به كل انسان بطريقة فريدة خاصة، و اهتمام يسوع الدائم هو ان يطبع صورته في كل واحد مناً بسمات الجمال الخاصة التي تميزنا عن الآخرين.

إنه، كرسَّام ماهر، عنده كل لونٍ و كل ريشه. و بما أنه سيد الازمان، فهو يستخدم الزمن كما يشاء، فيطيل السنين، إن مسّت الحاجة، ليُتمّم عمله. وهذا العمل هو وحده يعرفه، وهو وحده يستطيع ان ينفّذه، و هو لا محالة مُتِمُّة، ما لم يعطّل الانسان فعله.

ترين، يا نفسي، ان من الحكمة ان تستلمي لسيّدك. فماذا تعرفين عن التصميم الالهي؟ ماذا ينفعك ان تفحصي العمل الالهي بفضول و ان تحلّليه و تُبدي فيه حُكمكِ و خصوصاً ان تشجبيه؟ أَلا فاقبليه بحبّ ودعي الله يكيّفِك كما يشاء.

و ماذا تنفعنا معرفة اعمال الله ان لم تقُدنا الى محبته؟ فالنفس لا تتقدم في الكمال بفعل العقل و انما بفعل الارادة و القلب. لو اتيح لي ان اتأَمل في "معامل" السماء كل تحف الفنان الالهي، ولو عرفتُ بالتفصيل ما خفي من العجائب في سيرة كل قديس، ولو ميّزت فيهم فعل الروح القدس العجيب، فماذا تنفعني هذه المعرفة

ان لم اقبل انا الصورة التي طبعها فيّ الفنان الالهي؟ ان الارض لا ينقصها العلم، بل تنقصها المحبة و الطاعة و الاستسلام للعمل الالهي.

كفّي يا نفسي عن القلق بشأن تقديسك. كفّي عن البحث بتحرق عن وسائل تقدّمك في الفضيلة، فليس لك ان تستنبطها: لقد هيأها الله منذ الازل عندما صوّر في ذاته بما أَعدَّ لكِ من الجمال، و هو يقدمها لك الآن في كل لحظة من ايامك، في واجباتك الناجمة عن دعوتك او حالتك، و في الآلام الصغيرة او الكبيرة التي يمزجها بحياتك. فتمّمي تلك و احتملي هذه بمحبة قلبية لله. تلك هي القداسة في اللحظة الحاضرة: ذلك هو بذلُ ذاتك المجدَّد في كل فعل و في كل الم من آلامك اليومية. و أما الباقي فلا يخصكِ ولا يمكن إلاَّ ان يضر بك.

آه! ما اقلَّ تقدير بساطة النفس التي تستسلم هكذا لله! أيتها البساطة انكِ تظهرين كجهل و غباوة. و لكنك في الحقيقة مهارة و حكمة الهية . فحيث يتوقف الآخرون مرتبكين بعلمهم، تَعبرين أنت بدون عائق، و حيث يكتشف الآخرون المهاوي، لا ترين انت إلاَّ طريقاً واسعة ممهدة. فسيري ايتها النفس البسيطة سيري ولا تقفي ابداً، فمعك دليل امين.

بوسع كل النفوس ان تصِل الى احوال روحية سامية، الى قداسة رفيعة اذا سلكت هذه الطريق. و اذا كان القديسون قِلّة على الارض فليس الذنب فيه على الله بل على النفوس عينها. فكأنها لا شغل لها سوى معاكسة الفعل الالهي، تروم ان تساعد العامل الالهي لكنها لا تقوم إلا بعرقلته؛ و تدّعي تصحيح عمله، و تجد مجالاً للانتقاد في كل ما يفعل. فالعمل لا يتم بالسرعة الكافية، و الخالق لا يأبه لمشتهياتها القليلة الصبر ولا يجاري أهواءها الصبيانية وهكذا يكثر التذّمر، يا يسوع، من بطء التقدّم و من الوقوف دوماً في النقطة الواحدة!

المقالة السادسة

يسوع وحده يعلم المقام الذي تحتله النفس في جسده السري

يا يسوع! انت مركز الكون. كل شيء يدور في فلكك، كل شيء يتجه اليك. انت مصدر كل حقيقة، و منبع كل محبة و مثال كل جمال.

ايها الانسان الاله. انك تجمع في ذاتك الخالق و المخلوق، المحدود و من لا حدّ له. ايها المخلص، انك مبدع عالم النعمة الذي يصل بين نظام الطبيعة و نظام المجد.

فيك تجد كل العلوم و حدتها، و كل الفضائل مثالها، و كل الفنون كمالها الاسمى. فيك تفسير الوقائع التي تسود تاريخ الشعوب. انت وحدك توضح غوامض تتابع الممال، والانقلابات والثورات والحروب. انت وحدك تستطيع حلّ المشاكل التي تقلق قلب الانسان. بك يصبح للألم معنى وللرجاء اساساً ووجهاً لكل توق الى الكمال.

و لكنك يا يسوع انت على الاخص رباط القلوب! انك تؤلف مع كل النفوس البارة جسداً سرياً واحداً انت رأسه و انا أحد اعضائه.

لقد اختارتني كلمة الله منذ الازل لأكون عضواً في هذا الجسد السري. رأى و اراد المقام المعين الذي أشغله والعمل الذي اتممه فيه. لقد سبق فحدّد طريقة سريان الحياة الالهية فيّ، و المجاري المختلفة التي تمرّ بها قبل أن تبلغ اليّ، و التحوّلات التي تطرأ عليها فيّ قبل أن تنتشر في نفوس اخرى. انه مّيز الامراض التي ستعتري كياني الروحي و ما قد يلحق به من الاوهان و الادوية الخاصة التي سيستعملها للتغلب عليها.

لم يفلت من عنايته الالهية امر واحد مماً يخصني. و ما صنعه لأجلي، يصنعه ايضاً لأجل كلٍّ من المؤمنين لانهم جميعاً اعضاء في جسد، ان الرأس الالهي يعتني بكل واحد كما لو كان وحيداً في العالم. يعيّن لكل واحد مكانه، و المهمة التي يقوم بها، و يساعد، ويرتب، و يتدارك، و يشفي، بحسب حاجة كل واحد.

فما احكم ان يُترَك الرأس الالهي ليعمل على هواه، و ان يلزم المرء حدّه و يتمم واجباته، بأمانة، و يخضع لفعل يسوع، و يتقبّل نعمه، و يدعه يحوّله و يكيّفه و يحرّكه و يقلّبه بحسب مشيئته.

و اأسفاه! كم من مرّة حاولتُ أن اخرج عن نطاق هذا الفعل الالهي، و ان أعيّن لنفسي المهمّة التي اقوم بها. و ان ارسم حركاتي، و أنتقي وظائفي، فأتعدّى هكذا على قائدي الالهي.

يا نفسي! استسلمي من الآن فصاعداً ليسوع، و تخليّ عن ارادتك. إنك عمياء ولا تعرفين حتى المقام الصغير الذي تشغلينه في جسد المسيح. فإذا تصرّفت بحسب رغبتكِ و تبعت هواك تعاكسين فعل يسوع. إذا اردتِ ان تكوني يداً و انتِ رجلٌ خالفتِ ما رتّب لكِ، فلا تستطيع الحياة الالهية أن تسري فيكِ، فتيبسي و تسقطي فترسل محلك نفس اخرى اكثر طواعية و انقياداً.

يا يسوع ابعد عني هذا الشقاء، ايها الكوكب الالهي الذي تدور حوله كل النفوس المخلصة، اجتذبني الى فلكك، انزعني عن ذاتي و اجتذبني اليك في الاجواء اللامتناهية حيث لا تنفس الا عبير المحبة.

ان قلبي يطلبك بلا انقطاع؛ يروم ان يذوب فيك، و ان يحيا تلك الحياة المستترة مع المسيح في الله، التي يتكلم عنها القديس بولس. كما تغرز عشبة الحقل المتواضعة جذورها في الارض، كذلك أنا أثبت جذوري في قلبك الاقدس ايها المعلم الصالح. و كما تتعلق النحلة الصغيرة بالزهرة، هكذا انا اتعلق بكَ يا زهرة يسّى الالهية. إنني اغوص في كأسك و ارتوي منه طهراً و محبة. ألستَ ناصعاُ كالزنبق و احمر قانياً كالورد، ألا تقطر شفتاك عسلاً صافياً؟

ما اجمل هذه الحياة التي سأحياها بيسوع! إنه يأخذ على نفسه ان يقدّسني و أنا اعاهده بأن أحبه.

ايتها الام الحنون العذراء، حوّلي عينيّ وقلبي عن كل مغريات الارض وجواذبها. إحمليني بين ذراعيك يا مركبة اسرائيل الالهية فعندما اشعر بأننا ندخل في اجواء ارفع، الى عالم كله نور و صفاء.

المقالة السابعة

ان الروح القدس ينوّع فعله كما يشاء، في النفوس المستسلمة له

بذلُ الله ذاته للنفس و بذلُ النفس ذاتها لله: ذلك هو الكمال. وهذا البذل يتمّ بواسطة يسوع. فغاية حياتنا على هذه الارض ان نولد بيسوع، و ان نتقوّى فيه، و أن نبلغ فيه كمال نموّنا الروحي.

ولكن، كيف يتم هذا النمو؟ _ اننا نولد و ننمو في يسوع بالنعمة، و هذه يُفيضها الروح القدس في نفوسنا. إن جسد يسوع السرّي، أي الكنيسة ، يشبه شجرة، والماء الذي ينميها هو النعمة.

هذه الشجرة الضعيفة التي غُرست على الجلجلة في الارض التي سقاها يسوع بدمه، قد نمت و تفرّعت. لقد تأصلت في الارض الوثنية، طيلة ثلاثة قرون كلها اضطهاد، وغرزت جذوراً عميقة، و لمَّا هدأت ريح العاصفة بسطت امام عيون العالم، و قد اخذه العجب، غصونها القوية المثقلة بالأوراق والازهار و الثمار.

ان يسوع هو جذع هذه الشجرة العظيمة التي تظلل اوراقها جميع شعوب الارض. و كل مؤمن هو احد افنانها .

والله آخذ على نفسه ان يثلها بالثمار:" أبي هو الكرّام" هو يسهر على جمالها و خصبها. و يشذ بها عند الاوان، و يقطف في الاوان المناسب الثمار الناضجة، و يوفّر لها الشمس و المطر و يثير الريح و العاصفة التي تزيد في تأصيل جذورها، وتنزع عنها الاغصان اليابسة.

اما النموّ فهو عمل الروح القدس الذي هو محبة: و هذه المحبة الالهية هي حياة الله نفسها، هي طبيعته: الله محبة.

هذه المحبة قد انحدرت من الله الى الخليقة العاقلة، فأفاضها الروح القدس، بلا قياس في المسيح جذع شجرة الكنيسة، و هو يتابع عمله فيغذي بتلك العصارة عينها كل الفروع التي ينميها حتى اخر الازمان . هذه الحياة الالهية، الواحدة في حدّ ذاتها، متنوّعة الى ما لا حدّ له في مفاعيلها. فمن خواصّها انها لا تعطي ثمرتين بطعم واحد و عطر واحد، بل تنوّع عملّها الى ما لا نهاية له.

ان النفوس التي قدّسها الروح القدس، منذ بدء الازمنة، كلها جميلة في نوعها، بعضها يتميز بطهارته الملائكية و نقاوته البتولية ، امثال انيسيا و ثيودورة و كاترينا و بعضها يتميز بتقشفه وتوبته البطولية، امثال مريم المصرية، و ايرونيموس، و انطونيوس ، و باخوميوس.

بعضها قضى حياته في مناجاة قلبية هادئة مع يسوع و آخرون غيرها طافوا الارض و البحار سعياً وراء النفوس، امثال بولس الالهي.

البعض ذابوا بمحبة المصلوب الالهي، و غيرهم اكلتهم غيرتهم على مجد الله.

كل عجائب النعمة هذه المتنوعة، يفعلها روح الله الواحد هي الحياة نفسها تسري في اغصان الكنيسة فتعطي هنا ورقاً كثيفاً وهناك زهراً اخَّاذاً، وهنالك اثماراً لذيذة.

وفعل الروح هذا يتمّ برفقٍ وبلا جلبة. فتصعد الحياة الالهية باستمرار و تسري بسكون من الجذور الى الجذع و من الجذع الى الاغصان و تعود من الاغصان الى الجذور، ولا تقف إلا امام الحواجز التي توضع لها. و ف بعض مراحل الحياة، يقوى جريُها: فيكون حينئذ ربيع الحياة الروحية وصيفها؛ وفي بعضها الآخر تظهر وكأنها قد جفت، فتختفي عذوبة النعمة، و تفتر المشاعر الحلوة وتخمد الانطلاقات النشيطة: هذا هو الخريف الحزين والشتاء الطويل، هذا وقت التجربة الذي تجمع فه النفس في داخلها، في الارادة، كل قواها الحيوية فتنقيها و تضاعفها و تتهيأ للانطلاق في حياة جديدة أشد نشاطاً و اكثر سمواً. طوبى للفوس الطيّعة التي بذلت ذاتها لله، إنها تفهم ان مهمتها تنحصر في افساح المجال لروح المحبة يعمل فيها. فهي تعلم ان محبته الالهية تحوّلها كل يوم اكثر فأكثر وتجعلها شبيهة بيسوع. و من ثم هذا التحوّل يكون التشبه الام بيسوع و يكون بذل الذات الكامل: "لان الذين سبق الله فعرفهم سبق ايضاً فحدّد ان يكونوا مشابهين لصورة ابنه".

المقالة الثامنة

كل شيء يساعد على تقدم النفس البسيطة، بإرشاد الروح القدس

ايها الروح الالهي! انك تمسك بيدي لتقودني رأساً الى الهي. فأريد ان اكون طيّعاً ، وان انسى ذاتي و استسلم لإرشادك، فأنا أرى في هذا اسمى درجات الحكمة.

ان المسافر الذي يجهل خريطة البلاد التي يجول فيها، لا يركن الى معارفه الخاصة بل يستصحب دليلاً اميناً. و أنا ، ماذا اعرف عن بلاد القداسة؟ كل شيء فيها غريب عني: السكان و الشرائع و العادات و طرائق الحياة، حتى اللغة الدارجة فيها فما هي الوسيلة حتى لا أضلّ الطريق؟

ثم ان لي اعداءً يهمهم تضليلي؛ وهم كثيرون و ماكرون وبعضهم قد تسلّل الى صميم داخلي فصار جزءاً مني. يتحالفون كلهم علي، ولا يتركون لي راحة ما لم يروني قد وقعت في الهاوية. فكيف انجو من هذه الفخاخ الكثيرة؟ ليت الطريق وساعة و ممهدة! لكنها ليست إلا مسلكاً ضيّقاً يضيع أحيانا في جبال عسرة المسلك، و احياناً يغور في مستنقعات موحلة: و مع ذلك لابدَّ من السير الدائم ، فالتراجع يعني الهلاك المحقق.

فكم يليق بي ألا اركن الى ذاتي بل ان اتعلق بدليلي. هذا الدليل المرشد هو الروح الالهي، المعزّي في الضعف و الاحزان، العاضد في مصاعب الطريق، و المنير في الظلام.

انه يجعل من تقديس النفوس شغله الوحيد. فماذا يهمه مصير الممالك عندما تبلغ النفوس التي يقودها القداسة المعدّة لها! إن عنايته تسوس العالم ، تتصرف التيجان، و تعطي السلطة و تزيلها، مهتديا في ذلك كله بحسب مشيئته ولاجل خير النفوس كثيراً ما نسائل ذواتنا، لمَ هذه الثورات و الحروب و الاوبئة والكوارث الاجتماعية الكبرى؟ لمَ تُضطهد و تذلّ البلدان الضعيفة، و ينتصر العنف؟ لمَ هذه الكوارث العامة، و احزان العائلات، و المجازر البشرية، ودموع الامهات؟

ما أقصر مدى نظر العقل البشري! هنالك نخبة من النفوس، وقد تكون كثيرة، تنقيها هذه التجارب و تقدسها. هنالك نفوس لن تخلص ابداً لولا هذه التجارب. و العالم كله لا يساوي واحدة من هذه النفوس. و قد يسمح الله بانقلابات مروعة ليحصل على فعل محبة واحد من نفس صغيرة منسية في احدى زوايا قرية صغيرة.

فيا حكماء وعظماء هذا الدهر! انتم تظنون انفسكم سادةً محكمين في مقادير هذا العالم، تفرضون عليه السلم او الحرب. لكن الله لا يأبه لقدرتكم، فهي بنت يوم واحد. انكم وسائل يستخدمها الى حين و من ثم تتوارَون، بينما عمل الله يتمّ و النفوس المخلصة تتقدس.

ليس مرشدي متفانياً في خدمة نفسي و مصمماً على تقديسها فقط، بل انه يملك ايضاً كل الوسائل لتتميم ذلك ويختص بذاته وحده انتقاءها. فبهديه كل الطرق تصبح حسنة و تقود الى الغاية. إنه يسرّ بترك النفس جاهلة مآربه، فيقودها بين المهاوي و يصعدُها الجبال الوعرة. يُدخلها غابات واسعة الاطراف غير معتنى بها و يعرّضها لتقلبات الهواء و لأسنان الوحوش . و احياناً يتوارى عن النظر.

بيد ان النفس التي أسلمت له ذاتها لا تفقد ابداً شجاعتها. لقد تعلمت ان تنسى ذاتها وان تتكل على مرشدها. فينقشع الضباب بعد قليل و يعود الهدوء، و تستقيم و تتمهد الطريق، و يسير الدليل الالهي من جديد الى جانبها. لقد اراد ان يعلمها كيف تبذل ذاتها بلا تحفظ، له وحده ان يُعنى خصوصاً بتقديسها.

لنسرِ معاً ايها الروح الالهي. انني استسلم لك: لن اخاف و لن اتردّد من بعد، بل أرمي ذاتي بلا تحفظ في حضن عنايتك فاهدني و قدّسني، أما مهمتي فان أمّحي، ان اختفي.

الفصُل الثالثِ

من السهل ان نبذل ذاتنا لله

المقالة الاولى

تخطئ النفس إذ تبالغ في تصورّ مصاعب الحياة الروحية

ان الله هو السيد المطلق على كل شيء. هو مبدأ كياني و غاية وجودي، و المثال الالهي لحياتي، و له عليّ سلطان مطلق و شامل.

انني لأجزع امام هذا الواجب الدقيق الباهظ بأن اكون بكاملي لله. لا أستطيع ان أسلُبَه أيَّ فعلٍ ولا أية برهة، من غير ان ارتكب سرقة.

كيف يمكن ان توقف له حياة بكاملها ، مليئة بألوف الاعمال اليومية؟ فالعقل يولّد أفكاراً لا نهاية لها، والقلب يولّد عواطف لا عدّ لها، فكيف يمكن التسلط على كل هذا العالم الداخلي؟

فان الاهواء العنيفة او غير المروَّضة، تواصل عملها بلا انقطاع. و الحواس تتحمل بصعوبة نير الارادة؛ و المخيّلة تظن نفسها سيدة البيت فتقلب كل الترتيب الداخلي؛ و العقل يدع مجالاً لتخدعه الحواس و تُغويه ظواهر الحقيقة؛ والارادة نفسها ضعيفة، تغذّي علائق سرّية، متواطئة مع العدو.

ثم كيف يمكن ان توقف لله حياة بكاملها عندما تتكاثر العقبات الخارجية حول النفس؟ فلو ارادت ان تبذل ذاتها لله، هل يُترك لها أن تفعل؟ كثيرون اعداء الله و اعداء التقوى، واللامباليون و الجبناء اكثرُ ايضاً. ان الحياء البشري هو سيّد العالم و قد حوّلت عن اله ابتسامة او سخرية او كلمة قارصة، نفوساً اكثر من التي حوّلها الشيطان نفسه.

و فضلاً عن ذلك، كيف يمكن ان يشعر المرء بأنه مسلّح ضدّ إِغراء العالم الحالي و ضدّ مُغريات الشر و المُثُل السيئّة و المبادئ المفسدة؟ آه! ما أصدق ما قيل:" ان جميع الذين يريدون ان يحيوا بالتقوى في المسيح يسوع يُضطهدون".

هذا، ولو ان حياة البذل لله هذه لا تدوم إِلا بعض الوقت، لهان الامر، لكن يجب ان تدوم حتى النفس الاخير، بلا هوادة ولا استرخاء ولا تخفيف، لان كل شيء هو لله و يجب ان يكون له.

كيف يمكن تحمَل صراع دائم مثل هذا ، ضد ذاتنا و ضدّ العوائق الخارجية و ضد الاعداء على اختلاف انواعهم؟ ان النفس تتعب في آخر الامر ، و القلب يملّ، و الارادة تضعف و العادة الرتيبة تحل محلّ الحرارة، و اللامبالاة تعقب الحماسة و النشاط و الكسل يحلّ محل الغيرة الاولى فتُودَّع المقاصد الكريمة والرغائب النبيلة و التضحيات البطولية. انها لم تكن الا احلاماً حلوة و مرتجيات وهمية. وداعاً ايتها القداسة فانك لصعبة جداً! انه لصعب قاسٍ، ايها السيد، الكلام الذي يدعوني الى مثل هذه الحياة فمن يستطيع سماعه؟

اللوحة قاتمة فهل تريدين يا نفسي ان تذهبي ولا تعودي تتبعين المخلص الذي يدعوك الى اتباعه؟

يا يسوع! الى من اذهب؟ أليست كلمات الحياة الابدية عندك؟ لقد قلت:" ان نيري هيّن و حملي خفيف". " فتعالوا الى يا جميع المتعبين و ثقيلي الاحمال و انا اريحكم". اذن ليس اتّباعك صعباً جداً . و انا إِنما أُخدع عندما تصور لي القداسة كشيء مستحيل على ضعفي.

لقد اعطيت خلائقك كلها ما يلزمها، بل ما يفيض عنها. و لذا لا ينقصها شيء مما هو ضروري لبلوغ غايتها. فهل انا وحدي قليل الحظ حتى انني لا املك وسائل التقديس غريزة؟ اني ارى اشد الاشياء لزوماً للوجود منتشرة بسخاء في كل مكان. فالماء و الهواء و الارض لا تعوز احداً؛ و تنقص حياتي الفائقة الطبيعة، التي هي في عينيك اثمن بكثير من تلك، العناصر التي لا يمكن الاستغناء عنها. آه! انا لا استطيع ان اصدّق ذلك! ان حكمتك قد سبقت فرأت و نظمت كل شيء، و قدرتك قد هيأت كل شيء و صلاحك قد بذل كل شيء لتسهل لي الحياة الروحية!

فيا يسوع! لا اريد ان استبه مصاعب الكمال، بل اترك هذا لأعدائك. همّهم ان يُبعدوا النفوس عن قلبك الالهي، اما انا فأريد ان ادنو اليك و اجلب معي نفوساً كثيرة. فعلِّمنا يا يسوع الا نزحم طريقنا بعقبات خيالية، و الا نُحمَل انفسنا احمالاً لا طائل تحتها، الاَّ نسير في مسالك ضائعة، وألاَّ نضني قوانا في مسيرٍ بلا تروٍّ.

أرنا يارب الطريق الواسعة و الممهدة، و امسك بيدنا. اننا لن نتركك، و سنمضي معك حتى قمة الجبل. و هنالك نستريح فيك يا يسوع، و نفرح مع جوقات من نفوس كريمة سبقتنا.

المقالة الثانية

يكفي كلّ يوم همّه

الى مَ يمكن ردّ شريعة بذل الذات للّه، الشاملة المطلقة؟ _ يمكن ردّها الى واجب اللحظة الحاضرة. ان تقديس حياة بكاملها، يعني تقديس اللحظة الحاضرة للّه. فالماضي قد فات، و المستقبل لم يأتِ بعد، والحاضر وحده واقعي وهو يجلب معه واجباً.

آه! ما ابعد عن المنطق ان يُرهق المرء فكره فيصور ملايين افعال ستُقدّم للّه و تضحياتٍ ستُجدد بلا انقطاع و مصاعب كثيرة لابدّ من التغلب عليها. ذلك كله نظرة تجريدية للقداسة من خلال زجاج المخيلة المكبّر. امَّا الواقع، و الحياة المحسوسة، فهي فعل يُقدَّم للّه، وواجب يتمم، و صليب يُحمل، و حزن يُحتمل، و احياناً هي استراحة تُؤخذ تحت نظر اللّه، هي فرح يُقتسم معه و سهرة تقضى بقربه.

ان حصر القداسة في هذا الواجب الحاضر فقط يعني تسهيلها و مجاراة مقاصد اللّه الذي لم يشأ ان يثقل عاتقنا بحمل لا يمكن رفعه. عيشوا يوماً فيوماً، يقول لنا الرب، ولا تهتموا للغد، فالغد يهتم بذاته؛ "يكفي كل يوم همُّه".

انه ليخدع نفسه كثيراً ويجعل حياته مستحيلة، من يكدس، بواسطة المخيلة، كل الحجارة المبعثرة على الطريق الواجب قطعها، و يركمها جبالاً تمنع المرور، ثم يقول بحزن، وقد عقد الايدي:" ما الفائدة من بدء المسير، فلن استطيع التغلب على مثل هذه العقبات" . اما المسافر الحكيم فيعرف انه سيصادف حجارة على طول الطريق، لكنه يعرف ايضاً ان قليلاً من الجهد يُمكنه من المرور من غير ان يصطدم بواحد منها.

ان المخيلة كثيراً ما تؤدي للنفوس خدمات سيئة، فأنها تسلبها نصف السعادة التي تحق لها، و تسمّم البقية. هذه المخيلة تذكر النفس بآلام الماضي و تحييها فيها فتخدعها و تضاعف مرارتها. خيبات الامل، و المعاكسات، و المعاملات السيئة، و المعاتبات، و الاهانات، و المظالم، ذلك كله تحفظه الذاكرة، و تقيده

المخيلة موسّعاً، مكبّراً، و ملوّناً. و كذلك المستقبل الذي لا تعرفه النفوس بعد، يبعث فيها مخاوف خيالية و آمالاً لا تُحقق، تكهنات بعيدة عن الصواب.

الم يقل يسوع بحقّ "كونوا كالأطفال" فان الطفل لا يفكر بالماضي وهو أقل تفكيراً بالمستقبل؛ حسبه انه بقرب امه، يمرح امام عينيها، و يعرف جيداً انها تُعنى به.

يا نفسي! عودي طفلة. دعي كل اهتمام بالماضي و كل خوف او أملٍ قلقٍ في المستقبل، ابقي بقرب الله في الحاضر؛ فتصبحي سعيدة و هادئة، و تصرفي كل قوة ارادتك و كل انتباه فكرك الى واجبك الحاضر.

اللحظة الحاضرة وحدها جديرة باهتمامك. فهي تحوي كنوزاً ثمينة. بوسعكِ في كل لحظة ان تكنزي لك كنوزاً للسماء، لأن الله حاضر لك في كل لحظة.

ما اشد غباوة اكثر النفوس! فأنها تطلب القداسة خارجاً عن ذاتها؛ تجول في الكون و تغوص في الماضي وتتفحص المستقبل، و تلاحق خيالاتٍ و اوهاماً، بينما الكمال بقربها، في اللحظة الحاضرة ، و ما فيه من خير و عطايا و ثروة. بقربها بحر من القداسة تستطيع الغوص فيه دائماً.

المقالة الثالثة

على النفس المستسلمة لله ان تتجنب الهموم الباطلة

ان الله لا يطلب من النفس سوى تتميم الواجب الحاضر، و ينهاها عن كل فكرة قلقة تتعلق بالماضي و عن كل اهتمام بالمستقبل. و هكذا ينحصر اهتمام النفس في التعرف على ارادة الله كلما بَدت، و في التقيد بتلك الارادة.

ان الله يأخذ بيدي، و يسير بجانبي. فليس عليَّ سوى ان اواكبه، من غير ما تطلع الى الوراء ، ولا نظرٍ الى المستقبل بعين قلقة، فلا اسير أسرعَ ولا أبطأ من مرشدي الالهي:" انت اخذت بيميني و بمشورتك تهديني" و هكذا يصحبني حتى نهاية حياتي.

يجب على النفس اذن ان تطرح عنها كل قلق و ان تجدّ في تمييز مشيئة الله في كل لحظة، حتى اذا عرفتها تستسلم لله بمحبة و امتثال.

ما اكثر ما يلذ لله تسهيل نصيبنا في عمل التقديس . ومع ذلك تعرف بعض النفوس كيف تخلق لذاتها صعوبات في هذا الامر البسيط. انها مستعدة لتتميم المشيئة الالهية عندما تراها، ولكن كيف السبيل الى معرفتها؟ و هكذا يتعلق تفكيرها، تعلقاً محموماً، بموضوع اللحظة الحاضرة، و يتفحصه، و يُقلّبه، و يفحصه و يزنه، و يحلله، ليتأكد من انه يحوي المشيئة الالهية. و كلما ازداد قلق هذه النفوس ازداد ارتيابها؛ و كلما ازداد ارتيابها، ازدادت رغبة في تفحص الامور. فتقع النفس القلقة المعذَّبة في الوساوس، و كلما حاولت التخلص منها وقعت في الحيرة.

ايتها النفس الموسوسة المسكينة، تعلمي ان تخدمي الله في سلام و هدوء. ان واجب اللحظة الحاضرة يمتنع عن ان يكون واجباً عندما لا تعرفينه. فان لم يدركه عقلكِ فهو ليس بالنسبة اليك مشيئة الله. و لمثل هذا الفحص لا تلزمك جهود طويلة، إذ تكفي ثانية واحدة، يكفي الوقت الذي يستغرقه القاء نظرة على الله، و عندئذ يملي الضمير الجواب. فان كان ايجابياً قبلته الارادة، و ان كان سلبياً تخلت عنه، و ان كان موضوع شك و ارتياب

تركته من غير ان تقلق. فالله عندما يريد ان يعلن لنا امراً يفعل ذلك بوضوح، لأنه لا يحب ان يرانا في الشك و الاضطراب، فالشك يحجب وجهه الالهي عنا.

ان النفوس المسكينة المعرضة للوساوس تضيع احيانا وقتاً طويلاً في التساؤل عن أي فعل يرضي الله بالأكثر: هل يجب تكريس وقت الفراغ للقراءة أم التأمل، للعمل اليدوي ام للدرس؟ أيلذ لله اكثر، الغوص في الوحدة ام التحدث بالأشياء الروحية، ان يحيا المرء حياة تأملٍ ام ان يبذل ذاته في خدمة القريب؟

المقالة الرابعة

ان الله يعلم بذاته النفس الحرة

ان النفس الامينة على استيضاح المشيئة الالهية في كل لحظة بنظرة بسيطة، تكتسب سهولة عجيبة في تمييز واجبها . فتنبهها غريزة سرية ان هذا العمل مرضي لله و ان ذاك هو اقل ارضاءً له. هذا التمييز الموحى هو ميزة النفس البسيطة، فالله يحب التحدث الى القلوب المستقيمة، و يناجيها بآلاف الطرق العجيبة. انه يعمل فيها عادة بانفعالات سرية، فتحس النفس بأن الله يكون مسروراً إن هي اقدمت على عمل ما او قامت بتضحية معينة. وهكذا فهي تبذل ذاتها بلا تردد ولا فحص، و تتمم مشيئة حبيبها . و الله يقودها على هذا النحو في كل مشاغلها.

ويدعو الله النفس احياناً لتكون اكثر قرباً اليه وهي عندما تسمع هذه الدعوة، تترك كل عمل لا ترسمه لها الطاعة و تسرع الى قرب يسوع. انها تعرف ان المعلم الالهي يروم محادثتها في ذلك اليوم في الفة اشد، وان يُسرَّ اليها اسراره الالهية، و ان يتغذى بقربها عن عقوق الآخرين. لكن النفس لا تعرف ان تفسّر هذه الغريزة الفائقة الطبيعة التي تدفعها، بل تشعر فقط بتأثيرها و تعرف انها آتية من الله.

ان سلوكها يظهر احياناً غريباً، لقليلي البصيرة. فينعتها هؤلاء بقلة الفطنة بل بالتهور. اما هي فتدعهم يتحدثون بما يشاءون و تواصل سيرها، ساهرة على ألاَّ تناقص افعالها و واجباتها الصريحة، ولا اعلانات مشيئة الله الجليّة. انها تتمم بأمانة واجبات حالتها فتطيع فرائضها المقدسة و رؤساءَها، و تبادر زميلاتها بالإكرام، و تبدي حباً و لطفاً في علاقاتها. و ما خلا ذلك فهي كلها آذان لسماع الصوت الداخلي الذي يدعوها و يملي عليها رغبات العلي. هذا الصوت هو كالنسيم العليل يلاطف عند مروره النفس التي تشعر بالتأثير الالهي فتتهلل و تطيع في الحال بالحقيقة، كم يحتوي عالمُ الله من العجائب! ما اعظم الاسرار التي يعملها الله في النفس الخاضعة لفعله الدائم! ما الذ تلك المناجاة القلبية الدائمة، و ذلك الانسكاب العاطفي المتدفق! بيد

ان النفس هي ايضاً متجمعة كلياً في مركزها و قد تخلت عن كل اهتمام يتعلق بالماضي او بالمستقبل، لا تعيش الا لهذه اللحظة الحاضرة، متركزة كلها في الله و منتبهة لصوته و مستسلمة لعمله. آه! لو عرفت النفوس ان تكتفي بهذه الحاجة الوحيدة لكان الله يعمل فيها كلها اموراً عجيبة.

غير ان هذا يتطلب هجراً لعالم من الافكار يملأ الرأس، ولرغائب، و لطموحاتٍ، و لمخاوف لا عدد لها تختمر في داخل الكائن المرهف الشعور، و لنزعات، و لمودّات، و لتعلقات تكبل القلب و تتنازعه من كل جهة، فتنهكه، و تجففه، و تُنفره من امور الله. ذلك يتطلب التخلي عن قيادة ذاتنا بحسب ارشادات فكرنا، ثم ان نلقي على الله كل همومنا و ان نطرح جانباً كل اعتبار يتعلق بكرامتنا؛ وقصارى القول ان ننسى انفسنا و ان نستسلم لله في اللحظة الحاضرة.

انه لمحزن ان نرى نفوساً كثيرة طيبة مدعوة لحياة الالفة مع يسوع تشغلها الوف اشياء باطلة، فتغدو مهتمة، حزينة، متضجرة، قلقة، لأنها لا تريد ان تحصر حياتها في اللحظة الحاضرة التي يعطيها الله ان تحياها.

ماذا يهمكِ من المستقبل ايتها النفوس البسيطة، هذا المستقبل الذي يعرفه الله وحده ويستطيع وحده ان يهتم به؟ ماذا يهمك من الماضي الذي لن تُحيي ذكرهُ من بعد، والذي تغاضى الله عنه ان كان سيئاً، و حفظه ان كان جيداً؟ لمَ تهمك حوادث الحاضر التي تتعلق بالآخرين ولا تتعلق بك؟ لمَ تهتمّين بالناس الذين تعيشين معهم و لم تكلفي بتقدير حركاتهم أو اقوالهم؟ لمَ يهمك العالم كله؟ فليس هناك بالنسبة اليك سوى شيء واحد مهم: هذه اللحظة التي يرسمها الله لك. فقدّسيها على قدر استطاعتك بحسب النعم التي يعطيها الله، و بحسب القوى الجسدية والادبية التي اولاك اياها، و بحسب المعرفة التي احرزتها، ثم البثي في هدوءٍ : فقد بلغتِ قداستك منذ هذه اللحظة.

اخلق فينا ايها الرب قلباً بسيطاً و مستقيماً. و انت ايتها العذراء المباركة، اشركينا في نقاوتك التي لا عيب فيها، و في تجردك الشامل التام. ايتها الحمامة النقية، اجعلينا لا نلمس الارض الا بطرف رجلنا، و عند اول خطرٍ من احتكاك ردئ بالأرض، اجعلينا ان نعود الى سابق انطلاقنا نحو السفينة الالهية ، نحو قلب يسوع.

المقالة الخامسة

لكي نبذل ذاتنا لله، حسبنا ان نحبّ

ان واجب تقديس الذات يتلخص، في نظر الله، في اتمام واجبات اللحظة الحاضرة. فمن ذا يستطيع الاعتقاد بأن في هذا الطلب الالهي بعض الغلوّ؟ فمن جهة، ليس تقديسنا عملاً صعباً على الله. و لكن يبقى اعتبار آخر. هذه الواجبات مهما كانت بسيطة، يجب ان تُتمم. فهل ان اتمامها امر عسير علينا؟

ان التقديس يعني بذل الذات لله جسداً و روحاً، و اخضاع الحواس للعقل والعقل للإرادة و الارادة لله، و ان نوجه كل اعمال قوانا الخارجية و الداخلية الى الله مبدئها و غايتها و مثالها؛ و ان نضبط اهواءنا؛ و ان نقاوم العادات السيئة و نتغلب عليها، و ان نكبح الميول الشريرة؛ و ان نصمد امام تيار المبادئ الفاسدة و اغراءات العالم؛ و قصارى القول ان نقاوم، بلا هوادة، انفسنا و الشيطان و العالم. فهل هذه المهمة طفيفة، و هل يمكن القول بأن بذل الذات امر سهل؟

ان ما يبدو حملاً ثقيلاً لأكتافنا قد خففه الله كثيراً، ان ما يظهر مُعقّداً في عملية التقديس، بسيط جداً لان الله نفسه هو صانعه. ان ما يُخيفنا بتعدده و تنوّعه قد ردّه الله الى وحدة عجيبة.

ان الآلة الانسانية هي من صنع عامل الهي، و لذا فهي كاملة بكل اجزائها. و قد وضع الله في وسطها دولابا رئيسياً هو الارادة. وهذه تُحرك سائر القوى و توجّهها بحسب مرتضاها. فالإرادة، بما انها اكمل من أي تركيب آخر، حرة في حركاتها: إنها تعمل عندما تشاء و كما تشاء وبها يتعلق كل شيء.

ان الحواسّ الخارجية تموّن الحواسّ الداخلية و الذهن، وهذا يخضع لسلطان الارادة، و الشهوة الحسيّة والاهواء هي ايضاً في خدمة الارادة الحاكمة وحدها، تعطي اوامرها فيطيع اتباعُها. و هكذا يتلخص الانسان كله في الارادة. و الارادة تتلخص بدورها في فعل واحد من افعالها هو المحبة. و ان الارادة تستطيع ان تشتهي، و تخاف، و ترجو، وتيأس، و تكره، وتفرح، و تحزن؛ وهذه الانفعالات كلها هي مظاهر فعل واحد اساسي

هو المحبة. حياة الارادة وحاجتها وميلها الذي لا يُقاوم، هو ان تحب. فإذا انتظمت المحبة، تكون الارادة كلها صالحة، و الانسان كله مقدّساً. اما اذا اختلت المحبة فالإرادة تكون كلها فاسدة و الانسان كله شريراً فتوجيه الحياة الى الله يعني اذن تنظيم المحبة. و عمل التقديس كله يتوقف على بذل القلب كله لله. كان القديس اوغسطينوس يقول: أحبب الله و اصنع ما تشاء. لأنك إن احببت الله فلن تعمل إلا اعمال المحبة هارباً من الشر الذي يهدمها و مبتعداً عن الاخطار التي تعرضها للضياع. و هذا هو السبب الاساسي للوصية الوحيدة: " تحب الرب الهك بكل قلبك... و قريبك كنفسك".

فعليك إذن، يا نفسي، لتتممي واجبك في اللحظة الحاضرة، ان تبذلي ذاتك لله بمحبة، و ان تسلمي اليه قلبك كلّه، و بعد ذلك أن تتممي العمل الحاضر تحت ارشاد هذه المحبة، فتحتملي الصليب المفروض عليك و تبتعدي عن الشر الممنوع. و لئن كنتِ لم تفكري بالله في هذه اللحظة عينها لتبذلي له قلبك، فلا تخافي شيئاً لأنك بذلك له القلب منذ زمن طويل و لم تتراجعي. كل الاعمال التي تقدمين عليها قد اسلمتِ امرها مسبّقاً لله فهي ثمرات شجرة قدّمتِها له منذ سنوات و جدَّدتِ هذه التقدمة النقية و البسيطة الف مرة.

فتقديس النفس يعني إذن بذل ذواتنا لله في اللحظة الحاضرة بفعل محبة حارّة، و الاستسلام له لإتمام مشيئته بحسب قوانا و انوارنا، تاركين له ان يتصرّف بخليقته كما يشاء، و مسلمين اليه الماضي و المستقبل، و مكلفينه بتدارك كل شيء و ترتيب كل شيء و اصلاح كل شيء.

المقالة السادسة

حسبنا ان نريد المحبة لتكون لنا

ليس اجمل و لا ارهب من جيش منظم مؤلف من جنود شجعان، يقودهم ضبَّاط مدرَّبون. ان قوة مثل هذا الجيش ملقاة بيد رجل واحد. فالرئيس يصدر الاوامر، وصداها يتردّد بين جميع الضباط، حتى يبلغ أذن آخر جندي. ان ارادة واحدة تضبط ارادة ملايين الناس، وفكراً واحداً يوجه عقولهم.

و الانسان بقواه المتنوعة واهوائه وحواسه مع افعالها وحركاتها و انفعالاتها التي لا عدَّ لها، يشبه جيشاً عظيماً . وفي داخله يسود ترتيب كامل للتنظيم والامر. اما القائد الاعلى فهو الارادة.

تستطيع الارادة ان تملى اوامرها على كل اتباعها، و لا يلزمها لذلك إلا فعل ارادي فينتقل امرها حالاً حتى الى ادنى القوى، و ينفّذ. فان كانت الارادة امينة لملكها يكون الجيش كله كذلك ، و ان خانت عَلَمَه فالجيش كله يقع في يد العدو. و لكي تتمّم الارادة واجبها لا يلزمها إلا ان تبقى في وظيفتها: ان تكون ارادة، أي ان تكون رئيساً حازما يعرف ما عليه ان يفعل و يروم ان يُطاع.

يا نفسي! انك تجهلين القوة التي منحكِ اياها الله، ولم تدركي يوماً القدرة التي تملكين: فان الله الذي اعطاك الارادة لتتسلطي بها على سائر القوى، قد البسها الصفات اللازمة للحكم، فلك ان تستخدميها و توسّعيها و تكمّليها بالتمرين الدائم و الصلاة الخاشعة. فلا تجزعي اذن من الصعوبات التي تعترضك، بل اجعلي الارادة على رأس جيش الاهواء و العواطف والمشاعر و المخاوف والآمال و الهموم التي تكوّن داخلك و تغذّي فيه البلبلة؛ وهذه الارادة تعيد النظام. قولي لها ان تثبت ناظريها في الله لتعرف مشيئاته فتنقلها الى مرؤوسيها. هكذا تكون القيادة وهكذا يكون الحكم. وبعدئذ لا تهتمي بما اقلقك حتى الآن. لا تتبعي افكارك و رغباتك و خيالاتك في مداوراتها التي لا آخر لها. لا تخافي حركات الثورة التي تحاول اثارتها شهواتك الجامحة ولا تعيري انتباها لصخبها، انها قد تعوَّدت العبث ولا يمكن اخضاعها في يوم واحد. لكن النظام سوف يسود

من غير ان تشعري بشرط ان تتركي للإرادة كل سلطانها. ما اعظم ان يعيش المرء بإرادته. ما ابهاه لا يترك نفسه تنقاد للأهواء و تغيير المزاج، و يحملها موجُ المخاوف و الرغبات و المسرات، وتتحكم بها انفعالات الساعة الحاضرة و ايحاءات الحواس و المبادئ الغريبة! ما اجمل ان يبقى الانسان ثابتاً كالصخر بينما تزمجر عاصفة الشهوات، و يهدّد البحر الهائج بتبديد كل شيء.

هذه، يا نفسي، هي الحياة التي ستحييينها. فالإنسان يتلخص في ارادته و الارادة تركز قدرتها كلها في فعل المحبة. فاحملي الى الهك، في كل لحظة، هذا الفعل المضطرم، فتكوني قوية كالله نفسه.

المقالة السابعة

ان الله يقابل بذل النفس، ببذل ذاته

تتجلى ارادة اللّه في كل لحظة بشكل واجب لابد من اتمامه و شر يجب اجتنابه، و صليب يُفرض حمله؛ والنفس تجيب في كل آونة من يومها بفعل قبولٍ وبذل ذات للّه بشغف. في هذا العمل الوحيد يلتقى ويتعانق الخالق و المخلوق. فالنفس تستسلم بكاملها للّه، و اللّه يعطي ذاته بدوره بلا تحفظ. كل حدث يهيب بالنفس الى تجديد هذا الفعل، و كل أَلم يَنضحهُ من القلب كطيب ثمين. و في كل مرة يجيب اللّه بمزيد من الحب و السخاء. و هذا المدّ والجزر المتواصل يملأ النبع حُباً ثم يجعله يفيض.

ألا تحرري يا نفس من نطاقك الضيق و اسكبي ذاتك في اللّه فان هذا الاله العظيم، و المحيط الذي لا غورَ له ولا حدود، يتنازل الى ان يفيض هو بدوره و يخرج من ذاته و يملاك الأقانيم الالهية الثلاثة السامية تروم ان توطد فيك سكناها و تجعل فيك مقام محبتها.

نظرة واحدة من نظراتك يا نفسي قد جذبت قلب اللّه و دفعته الى النزول اليك. لقد تَمتمتِ فعل محبة باتضاع وها ان السماء كلها تتوجه اليك، وها هوذا اللّه نفسه لا يستريح حتى يبذل لك ذاته. بوسعه ان ينتظر الحياة الآخرة ليغمرك بحبه، لكن محبته لا تعرف التأجيل، لذا فهو يعجّل في بذل ذاته لك.

يا الهي إِن من يراك في هذه اللهفة يخيل اليه انك بحاجة الى محبتي، و انك بدون خليقتك الصغيرة ، تحسّ بالوحدة والعزلة في غبطتك اللامتناهية. انك تَنعم عندما تشعر بقلبي يدق بقرب قلبك، و عندما تحدّق بناظريك الالهيين في عيني، وعندما تسمعني انادياك: يا ابي. ان قلبك يريد ان يحب و ان يشعر انه محبوب حبا لا مزيد عليه.

يا نفسي، استسلمي لمحبة اللّه و لفيض نعمه. ان حياتك قائمة في اللّه. ان الأقانيم الثلاثة فيكِ دوماً، تهتم بك؛ فابذلي ذاتك لها، و استسلمي لإرادتها و محبتها.

ان الآب يخلقني و يحفظني، و الابن يفتديني و ينقيني، و الروح القدس يقودني و يقدّسني. الآب يحملني بقدرته، و الابن ينيرني بحكمته، و الروح القدسُ يغنيني بصلاحه.

ايها الآب و الابن والروح القدس، الثالوث المغبوط، ينبوع الحياة و الحق و المحبة، كن ملكاً على. ان كياني الواهي يفيض حياة و ارتياحاً عندما يركن اليك، وظلامي يتبدد، وقلبي الجامد يدفأ و ينفرج. ان دهمتني الوحدة فلن اخاف، لأنني في صحبة أحنّ أبٍ و احبّ اخٍ و اخلص رفيق؛ وعندي ما اتحدث به معه طيلة قرون. ان داهمني الحزن أو غشّى نفسي الشوق المفرط الى السماء فلن اخاف ذلك، لأن فيَّ نبع سعادة، لأن فيَّ السماء، فعلامَ احسد الملائكة و القديسين؟ بوسعي ان احب الله الى الغاية وبلا توقف: اليست المحبة هي السماء؟

المقالة الثامنة

بذل الذات يحوي ممارسة كل الفضائل

ان فعل بذل الذات يجتذب الله الى النفس و يجتذب معه كل كنوز السماء. وهذا الفعل عينه يسلم الى الله الانسان كله، نفسه وجسده، و كل قواهما، وكل افعالهما دون استثناء. و متى صدر فعل العطاء هذا، و استمر قائماً، لا يبقى للنفس شيء تعطيه لله، ولا يبقى لله شيء يطلبه منها. ان هذا الفعل على بساطته هو ممارسة كبرى لأسمى الفضائل.

انه فعل ايمان حارّ جداً، تستسلم النفس لله بلا تحفظ ولا رجوع، و تؤمن أنه سيدُها المطلق، وفاديها، و مقدّسها و تثق بقدرته الكلية و حكمته وصلاحه.

هو فعل رجاء مطلق بالله، به تعطي النفس ذاتها لله طارحة كل اهتماماتها بين يديه، ناسيةً حاجاتها، مظهرة ان لا حدَّ لثقتها بالذي تستسلم له. إنها مستعدة في كل وقت ان تضحي له كإبراهيم، بأعز شيء لديها. و مثله تعرف ان خلاصه و نجدته يأتيان حتى عندما يُخيل للمرء بانه لم يعد هناك من نجاة.

ان بذل الذات هو فعل محبة كاملة، هو في جوهره محبة. فالمحبة هي التي تمليه، و تصوغه، و تعطيه صفاءه و ثوابه، وهي مقياس حرارته و قوته.

آه! ما احلى حياة نفسٍ بذلت ذاتها لله! انها كالسيرافيم في السماء. لا شغل لها سوى المحبة. المحبة كساؤها و غذاؤها و تنفسها كم يخاف الجحيم مثل هذه النفس التي تقذف لهب المحبة!.

ان بذل الذات هو ممارسة لسائر الفضائل. فالنفس التي تستسلم لله، مستعدة في كل لحظة ان تمارسها كلها من غير ان تتعلق بواحدة منها على وجه التخصيص، و حالما يطلب الله منها ذلك فهي تُمارسها بسخاء. هي متواضعة فتعرف جيداً انها و ان اعطت كل شيء لله، فهي تبقى "عبدة بطَّالة". إنها تمارس الإماتة، وتتقبل بفرح كل الصلبان التي يقدمها لها يسوع. انها نقية تعيش على هذه الارض، متجردة من كل تعلق بالملذات

الدنيوية. هي غيور تخصص كل اوقات حياتها لمجد الله و شرف اسمه. وهي سخية قد انكرت ذاتها الى الابد و اسلمتها بكاملها في كل لحظة، فما عادت تفكر الا في إرضاء يسوع.

في فعل بذل الذات وحده تمارس النفس كل الفضائل و تسلم ذاتها الى الله مع كل ما تملكه و ما سوف تملكه.

ان معلمنا الصالح قد لخص الكمال في هذا الفعل الوحيد: بذل الذات في البرهة الحاضرة. ان بذل الذات هذا لقاء بين الله و النفس. انه شركةٌ لا تنقطع، انه الكمال في اسمى درجة يستطيع الضعف البشري ان يصبو اليها.

ببذل الذات هذا تقدَّسَ كل الصالحين الذين عاشوا على الارض قبل المسيح. لم تكن لديهم معرفة بشرية بالقداسة، و لم تكن لديهم الكتب الروحية لتحصيل هذه المعرفة. لكن وحي الروح القدس كان يكفيهم و يغنيهم عن كل شيء.

ببذل الذات هذا تقدست النفوس التي عاشت بعد مجيء المخلص: الرسل و الشهداء و العذارى و المعترفون و ذلك العدد الغفير من القديسين و القديسات المجهولين من جمهور الشعب، الذين تُكرم السماء فضائلهم و تمجدها. هؤلاء مع تنوّع المواهب و الانوار والالهامات و النعم التي خصّهم الله بها، تحلّوا جميعهم بشيء واحد لم يتغير هو المحبة.

ببذل الذات هذا، ايضا تتقدس نفوس النخبة التي تتبع الآن يسوع على الارض. ان اكثرها مجهول عند البشر، معروف عند الله وحده، لكنها كلها تواصل في العزلة و الخفاء تصوير مثال المسيح في ذاتها. حياة هذه النخبة بسيطة و عظيمة، مترفعة فوق الاهتمامات الارضية، بعيدة عن ضجة العالم و بلبلته. انها تتمتع بهدوء بالها و الله يُسرّ بأن يتمّ عجائبه فيها. هذه العجائب من يخبرنا عنها؟ لندَع هذا السرّ لله و للنفس السعيدة التي يسكن فيها، فليست معرفة عظائم الله هي التي تقدّسنا، بل يقدسنا الاستسلام له و بذل الذات، و فعل المحبة تردّده النفس في داخلها على الدوام.

القسم الثاني

ممارسة تسليم الذات لله

الفصل الأول

ممارسة تسليم الذات، على وجه الاجمال

المقالة الاولى

بمَ يقوم فعل بذل الذات

ان معرفة الحياة الروحية ليست في معرفة واجب بذل الذات لله، بل هي على الاخص في معرفة طريقة ممارسة بذل الذات و لحسن حظ النفس، ليس في هذه الممارسة ايّ سرّ يخفي عليها.

ان بذل الذات هو فعل من افعال الارادة الحرة. هو اندفاع القلب المستسلم بكامله ليسوع. فحركة النفس التي تبذل ذاتها ليسوع ليست إذن فعلاً من افعال العقل، إنها ليست تفكيراً ولا درساً ولا أيَّ عملٍ من اعمال العقل. فالعقل قليل الجدوى في اكتساب القداسة، إذ ان الله يحب ان يتجلّى للجهال و المتواضعين، و عمله لا يصادف في نفوسهم أية عقبة ولا يخضع لأية فحص.

واندفاع القلب في استسلامه ليسوع ليس ايضاً عمل المخيلة. فلكي تحسن النفس بذل كيانها بكامله لله ليست بحاجة الى ان تتخيل مدى كمال الله وجماله وحنوه الابوي و قدرته السامية و سلطانه الشامل على كل خليقة. ان عمل المخيلة يتطلب جهداً لا تستطيع كل النفوس القيام به. كما ان الله روحٌ لا يقع تحت ادراك أيٍ كان من الحواس، بل يكفي لإدراكه فعلٌ بسيطٌ من الارادة.

بذل الذات ليس ايضاً عمل العواطف. فالعواطف هي مجموع المشاعر و الاشواق و الافراح و المخاوف و الآمال التي توجدها فينا الشهوة الحسية. في هذا الجزء الادنى من الانسان يتحرك عالم من التأثرات و الانطباعات. و العواطف. مع كونها عبدة و أقل مكانة من الارادة بما لا يقاس، تصبو الى احتلال المكان الاول، و كثيراً ما

ينجح في ذلك في معظم النفوس التقية. لكن من يريد ان يبذل ذاته للّه عليه ان يضع الشعور في مكانه الحقيقي أي المكان الاخير، دون الالتفات لتذمره.

ان عمل القداسة هو شغل الارادة تساعدُها النعمة. و إذا كانت العواطف مضبوطة فإنها تصبح مساعداً نافعاً؛ و لكن إذا سُمحَ لها بأن تختلس وظيفة الارادة، أو على الاقل أن تتدخل في ذلك، فإنها تصبح عدواً تجب محاربته.

إن النفس ليست بحاجة الى العواطف كي تعطي ذاتها للّه. انها ليست بحاجة لان تشعر بالاكتفاء او الارتياح عندما تفكر بأنها استسلمت للّه. و بينما الارادة تعطي ذاتها للّه، و فيما هو يقدس كل كيانها، قد يكون القسم الادنى عرضةً للغم و الخوف بينما القسم الاعلى مغمورٌ بالنور، قد تكون العواطف غارقة في الظلام الدامس.

يا نفسي! تعلمي ان تعيشي بالإرادة، ولا تدَعي العواطف و ما تولد من اهواء تقودك كالأعمى. فالعواطف لا تستطيع بحد ذاتها ان تضيف او تحذف شيئاً من فعل بذل ذاتك. إستسلمي للّه بفعل إرادةٍ، و هذا الفعل روحي بكامله، ولا يحتاج ان يُلبَس عبارات، و يحوَّط باعتبارات جميلة، و ان يُجعل محسوساً بأقوال، و ان يُغمس في الانفعالات فهذا كله أ دنى من اللّه بكثير.

إن بذل الذات هو التقاء روحين: التقاء اللّه و النفس وهذا اللقاء يتمُ في صميم الارادة بتماسّ مفعمٍ محبة، لكنه روحيٌّ محض. و في اكثر الاحيان لا تشعر الحواس بأي انعكاسٍ له، بل العقل نفسه لا يدركه دائماً.

لننزع من الحياة الروحية تعقيدها، و لنردّها الى مفهومها الصحيح فتظهر لنا سهلة و دسمة. بيد ان اللّه لا يطلب إقصاء ما هو حّسي، و إنما يجب ان تعرف النفس ان العواطف ليست ضرورية لبذل الذات الحقيقي، و متى تأصل فيها هذا الاعتقاد بذلت ذاتها للّه، بحسب نعمته المعطاة لها. إن اللّه لا يمنع ما هو حسي إذ كثيراً ما يمنح التعزية و يحرك التأثر. و إنما يريد فقط ألا نعلق عليه أية اهمية، وألا نتصور في ايام الحزن و الظلام أنه قد حجب عن النفس حنوه و عنايته الابوية.

المقالة الثانية

يجب ان تتمم النفس فعل بذل الذات بكل ما تستطيع من الكمال

لقد جعل الله القداسة في اسهل فعلٍ من افعال الطبيعة البشرية و اكثرها تلقائية. فبذل الذات ليس الا اندفاع قلب محب نحو أب هو اكرم الآباء. فعلى النفس اذن ان تركز كل جهودها في فعل بذل الذات هذا و ان تقصي عنها كل هدف آخر . علينا ألاَّ نُضعِف عزمنا بتوزيعه : فالقوة المجزأة تتضاءل أو تذهب سدى.

لقد اراد يسوع ان تتركز طبيعتنا الانسانية و تتجمّع بكل قواها في الارادة وحدها، وهذه في فعلها الخاص الذي هو المحبة. فلا نكوننّ اكثر حكمة منه و لنكتفِ بتسليم ذاتنا اليه في كل لحظة بفعل محبة. فهذا الفعل يحوي كل ما نستطيع ان نبذله له و كل ما يستطيع هو ان يطلبه منا.

ومتى طرحت النفس عنها هكذا كل اهتمام آخر عليها ان تتمم هذا الفعل بكل ما تستطيعه من الكمال و أن تجعل فيه كل قوته وكل نقائه.

بوسع ارادتنا ان تحب محبة حارة جداً، فإنها قوّة المحبة،و علة وجودها الوحيدة هى ان تحب. لقد قيل عن الله انه محبة، هذا هو جوهره. لكن لا يمكن للارادة ان تكون محبة في جوهرها، فهي ليست إلاَّ القدرة على المحبة، بيد ان كل ما اعطاها الله من امكانيات يستدعي المحبة.

ان القلب البشري هاوية لا قرار لها وحوض لا حوافّ له يتطلب دائماً مقداراً اعظم من المحبة. و كلما امتلأ شعر انه فارغ؛ وكلما اراد ان يروي عطشه، ازداد عطشاً الى المحبة.

اننا ندرك بصعوبة هذه القوّة المحبة الخارقة التي حبا الله بها قلبنا. اننا نحب في حياتنا العادية، و لكناً لا نكاد نعرف ذلك. و شدَّة هذا الحب تظهر في ساعات الفراق فقط، عندما يكون القلب على اهبة فقدان الشيء الذي كان يحضنه. وقد يذهب هذا الحب حتى اليأس، و قد يسبب الموت. "فان المحبة قوية كالموت".

ما اعظم امكانية المحبة هذه المختبئة في قلبنا! لكننا نوزّعها على أشياء لا عدّ لها. فكل ما يروقنا نعلق به، و كل ما يظهر لنا جميلاً وحسناً يأسر قلبنا و يقيّده. و هكذا نبذّر كنوز المحبة المتكدسة في داخلنا. آه! ما كان اسرع ما نصل الى الكمال لو حصرنا هذه الحماسات كلها في هدفٍ واحد: الله؛ لو ذهبنا، في كل لحظة، عند بذلنا ذاتنا لله، الى اقصى ما نمتلك من امكانيات المحبة.

ان الله يدعونا ان نفتح قلبنا واسعاً: افتح فمك و انا أملأه؛ ألا وسّع رغائبك، وسّع قلبك، أخّرِ حدوده ثم ادعني اليك؛ فأملأك كبحر زاخر.

يجب على النفس عندما تصوغ فعل بذل ذاتها لله ان تسحب من المخلوقات كل اجزاء حبها المتناثرة عليها، و ان تجمعها و تحصرها كما في رزمة واحدة، و ان توجهها الى الهدف الوحيد الذي يستحق محبتها.

بعدئذٍ عليها ان تنقّي هذا الفعل من كل امتزاج بمحبة الذات. فمحبة الله ذهب خالص و اقل امتزاج بعنصر غريب يكدّر لمعانه و جماله، لذلك يجب على النفس ان تجتهد في اعطاء هذا الفعل كل ما تستطيع من الاخلاص، فالله يُسر كثيراً بالتجرّد.

يجب على المرء عندما يريد ان يحب الله، ان تكون لديه الشجاعة الكافية لينسى ذاتهه و يستسلم اليه تعالى بلا حساب و من غير ان يُبطن فكرة اخرى. وعلى النفس ان تغوص في الله كحجر يرمى في اللجة و من المعلوم جيداً ان هذا الحجر لن يعود ابداً الى سطح الماء، و أنه قد ضاع الى الابد عن استعمال البشر. كذلك النفس ترتمي في احضان الله مستسلمة لعنايته و لعمله، عارفة انها لن تستطيع من بعدُ ان تنال اية مسرة بذاتها ولا ان تعمل في سبيل مصالحها الخاصة. و انما تعرف ان هذه اللجة التي جعلت ذاتها تعوض فيها هي إله لا متناهٍ في الصلاح، حكيم قديرٌ يهتم بخلاصها، بكمال و إتقانٍ لا تستطيعه هي.

وهكذا تجتهد النفس ان تعطي فعلها كل ما تستطيع من الحرارة و الاخلاص. وعمل التجديد و التنقية هذا يتم داخل النفس في سكينة، من غير اجهاد الفكر ولا اعياء المخيلة. فتمتلك النفس كل ارادتها بهدوء، كل قوى هذه الارادة وتزيل منها كل عنصر غريب، ثم تستسلم لله بفعل محبة ملتهب بليغ.

المقالة الثالثة

تمرين بذل الذات

توضع أسُس البناء الروحي عندما تبذل النفس المخلصة ذاتها للّه بفعل محبة سخي . ثم ينبغي البناء أعنى تجديد فعل بذل الذات بتواتر. هذه هي ممارسة بذل الذات. إنها تتم بالبساطة والوداعة الهادئة عينها التي تتمّم بها النفس المستسلمة للّه واجباتها كلها.

فمنذ الصباح، عند النهوض من النوم، تتجه النفس الى اللّه و تسلم اليه كيانها كله، راجية منه ان يتصرف به بحسب ما يشاء. و هذا الفعل يقوم عندها مقام صلوات طويلة: إنه قبول المحب لكل ما سيقَعُ لها طول النهار من حلوٍ و مرٍ، من هيّن وشاقّ. انه استعداد فرح لعمل و تحمّل كل شيء، في سبيل إرضاء اللّه.

وتجتهد النفس بأن تبقى بسكينة في هذا الاستعداد الاساسي و تعيد فعلها المفضّل حيناً بعد آخر. و اذ تستجمع ذاتها هكذا في اللّه تنصرف الى الصلاة والعمل بحسب مقتضيات مهنتها انها تبقى سيدة ذاتها خلال اشغالها فتعمل بلا بطء ولا تسرّع، ولا تدع مجالاً ليتسلط عليها الشوق الى الانتهاء من هذه الاشغال بسرعة، ولا الرغبة في اكتساب تقدير الآخرين، ولا السرور الذي تجده في شغلها.

انها ليست لذاتها لكونها قد استسلمت بكاملها الى سيدها الصالح، كما انها ليست للآخرين لكونها ملكة و عروساً للمسيح. وليست ايضاً مستعبدة لعملها لان العمل ليس غاية، بل وسيلة فقط. إنها تقوم بعملها من غير هوى، و تواصله متجردة كتسلية جعلها لها يسوع، بانتظار مجيئه: وهي تنهيه بلا تسرّع اذ تعرف ان عملاً آخر سيعقبه، مرددةً دوماً، لتسكن نشاطها اللجوج: ليس عليَّ ان اقوم بعمل آخر ما دمتُ اقوم بهذا؛ و ما دمت في هذا المكان بارادة اللّه فلست ملزمة بأن اكون في مكانٍ آخر.

هكذا تهتم النفس تباعاً بواجباتها المختلفة و هي متسلطة على ذاتها تماماً، و بقلب حُر غير مرتبك، فتسمح لها هذه الحرية الداخلية بمباشرة كل عمل بروح متفتح و انتباه متواصل بلا تعب او تسرّع وبلا تراخٍ او تباطؤ.

إن الرجال الاكثر نشاطاً هم الذين تبدو عليهم بالاقل علامات النشاط. أما الَحركون و المتشاغلون فهم يكادون لا يعملون شيئاً. إنهم يبدأون لكنهم لا يتمّون. و بعد العمل يكون قلبهم مضطرباً و عقلهم مشغولاً وعاجزاً عن التفكير بالله. اما النفس البسيطة فهي، بعكس ذلك، تقتدي بالله الذي يظهر دوماً كأنه في راحة، فيما هو يعمل دائماً.

هكذا تقضي النفس يومها متسلحة بفعل بذل ذاتها لله، هذا الفعل الذي تعيده في كل عمل تعمله و في كل صعوبة تعترضها و في كل تألّم يحدث لها و في كل سرور او حزن تشعر به.

ان لها طريقتها الخاصة في الصمود للتجارب و إبعاد الملاهي فهي عندما تراها لا تطردها حالاً، كما يُطيّر الذباب بتحريك اليد، و انما تهملها و تكتفي بأن تردّد: يا يسوع، انني لك بكاملي فأعِنّي. جوابها لكل وسوسات الشيطان فعل محبة ملتهب، فتجربتها لا تدوم طويلاً، لان العدو يعرف ان كل تجربة تُولّد اندفاعاً جديداً من القلب نحو يسوع. وهي تتقبل كذلك بفعل محبة بسيط المعاكسات والصلبان والآلام اليومية. و العوائق كلها عندما تحصر مثل هذه النفس لا تُخرج منها إلا المحبة.

واوقات التنزّه لا تقطع اتصالها بالله فهي تقضيها بقلب حرّ عارفة ان الله يُريدها. لكنها لا تستسلم فيها لسرور باطل و مُفرط، فكل شيء فيها مُعتدل. انها تلهو كالولد تحت نظر امه غير ناسية ان الله حاضر يراها و يُحبها. و كذلك وجبات الطعام فهي تتناولها بحرية روحية تامة غير مهتمة لنوع الاطعمة: الا يأتيها كل شيء من يد الله ابيها؟ انها تتصور ذاتها النعجة المحبوبة وحدها، التي يتركها الله تنام على ركبتيه و تأكل من يده. فلا تنتبه إلا لهذا الاب الحنون الذي يُحبها بحنو، ولا تفكر في سواه.

وعندما يحل المساء، تتمتم النفس ايضاً وهي تنام فعل بذل ذات أرقّ_ ان امكن ذلك_ و أبلغ، لكي تعوّض عن اخطائها و ما اهملته في نهارها المنطوي. و بعدئذٍ تنام بسلام تحت عين المعلم الصالح الذي يسهر عليها.

المقالة الرابعة

المصاعب التي تلاقيها النفس في تمرين تسليم الذات

تتعاقب الايام و الشهور و السنوات في تمرين بذل الذات، رتيبة في ظاهرها، لكنها في الواقع مملوءة تنوُّعاً. الاساس يبقى هو هو، فعل البذل، لكن الله رسم على هذا الاساس الواحد صورة الوانها غير متناهية في تنوّعها.

لاريب في ان كل الايام لا تتشابه. فأحياناً تكون النفس كلها يقظة في محبتها. كل شيء يكون لها سهلاً، كل شيء يملوءها نشوة. فتشعر انها محمولة في الله كقشة خفيفة. و احياناً اخرى تجرّ ذاتها بصعوبة و تُحسُّ بأنها عبء على ذاتها وعلى الآخرين، وانها مقيّدة بالأرض و افكارها لا ترتفع الا بصعوبة، ثم لا تلبث ان تسقط ككتلة ثقيلة.

انه من السهل عليها نسبياً ان تبذل ذاتها لله وقت الصلاة، لكنها تحسّ بالتعب وقت العمل و في تتابع الواجبات اليومية. إن عذابها الكبير يتأتى عن عجزها في ذكر حضور الله. فكل شيء معه، يكون عذباً و هيّناً. و لكن عندما تنتهي الصلاة تحاصر النفس الملاهي، و المشاكل و الاهتمامات العديدة والهموم، فتشغلها و تقودها في تيَّارها.

مسكينة هذه النفس! لكن لها عزاء رغم هذا، فيسوع يطلب شيئاً واحداً هو أن تجدّد فعلها عندما تفتكر به. إن ترجيع الذكريات، أي التذكر، ليس في نطاق قدرتنا: إنه مستقلٌّ عن الارادة. فالنفس تستطيع ان تبقى زمناً طويلاً من غير ان تتذكر الله، مع عزمها المكين على ان تفكر فيه، وليس في هذا النسيان أية خطيئة بل هو علامة الضعف البشري. فلتذهب النفس إذن الى عملها بقلبٍ حُر طليق مصممة ان لا تفتش فيه عن لذة ذاتية، بل عن تتميم المشيئة الالهية. و مشيئة الله هذه تشمل الشواغل التي تفرضها الطاعة، و الظروف الاجتماعية، والحاجة، واللياقة. إن للنفس المستسلمة لله طموح مقدس الى تتميم اصغر واجباتها بدقة. إنها ترى في كل شيء مسرَّة ابيها السماوي، و هي تحسب انها ترتكب خطيئة لا تُغفر إن غيّرة بإرادتها الذاتية ادنى شيء من

الترتيبات الالهية بشأنها. وهي لا تفتش بفضولٍ عن معرفة ما يطلبه الله من الآخرين، فليس لها إلا نظرة واحدة، و هذه النظرة متجهة بكاملها نحو واجبها؛ وليس لها إلا بُغية واحدة هي ان تتمّم جيداً هذا الواجب.

ان العمل هو كالسر الذي تتقبَّل فيه النفس السيد المسيح؛ إنه الحجاب الذي يخفي وراءه السيد حضورَه الحقيقي والقلب البسيط يمزق هذا الحجاب و يرتمي بين ذراعي سيده.

ان كل عمل يُتمَّم على هذا النحو، هو بذل ذاتٍ جديدٍ للّه. و النفس المؤمنة تتقدم بلا انقطاع في هذا الطريق المؤدي الى الكمال. و مع الزمن، و من غير ان تلاحظ ذلك، يتحول فيها كل شيءٍ و يتأله. فيسوع يبذل ذاته بقدر ما تستسلم النفس اليه، إنه يضع ذاته بديلاً عن النفس و ينزع عنها عيوبها و يزيّنها بفضائله الخاصة.

يا يسوع، إني لا أريد ان اكتفي بأن اقدم لك مرة واحدة فعل بذل نفس الكامل، بل اريد ان اجعل من هذا الفعل أساس و اهتمام كل حياتي. ففي هذا كمالي.

لن أدع مجالاً لتوقفني صعوبة هذا التمرين و رتابته، ولا ضعفاتي العديدة. و انت لن تسمح، بمحبتك الكبرى لي يا يسوع. بأن استسلم لليأس، بل ستمزج الاشياء جيداً فتُعقِبُ الحلوَ المرّ و الهيّن الشاق حتى لا تسوّل لي نفسي ان اتطلع الى الوراء.

المقالة الخامسة

عادة بذل الذات

ان الطبيعة تستلزم وقتاً طويلاً لتُنضج ثمرة فقط. و الله يستعمل وقتاً اطول ليُنضج في النفس ثمر القداسة.

بعد برد الشتاء، و تحت تأثير أوائل اشعة شمس الربيع، يمتلئ البرعم بالعصارة ثم يتفتح زهرة جميلة. هذا هو القصد السخي الذي قصدته النفس بأن تبذل ذاتها كلها لله. إن البرعم مُثقل بالآمال و الزهرة مليحة و فاتنة.

لكن وجود الزهرة وقتي ولا تلبث ان تقع فتسمح للثمرة بتكوين نواتها الاولى. وبهذا يبدأ عمل نموّ و تكوين طويل ولا اصعب من الظروف التي يمرّ بها: فعلى الثمرة ان تتحمل الحرّ و البرد، الشمس و الشتاء؛ و أحياناً يظهر ان كل العناصر تتحالف ضدّها لتنتزعها من الغصن الذي يحملها و يغذّيها بعصارته.

هذا هو عمل تكوين الثمرة الشاق الطويل. هذا هو تمرين بذل الذات تمارسه النفس زمناً طويلاً، و في احوال شتى، تحت اشعة الشمس الالهية المحسنة، إبَّان تعزية المعلم الالهي و زيارته، كما في وسط العواصف و الامطار، و تحت سوط ريح الشمال و في الايام السيئة حيث يظهر كل شيء كأنه يتآمر لارهاقنا و تحطيم صبرنا.

لكن هذا كله حسن و خلاصيّ. فالفضيلة تتقوّى هكذا تدريجياً، و الثمرة نموّها التام، و تكسب عطرها العذب و لونها البهج و طعمها اللذيذ.

و اخيراً يأتي الخريف، فيزداد صفاء السماء و تقلّ وحدّة الشمس. لكنه اوان الحصاد. و كذلك النفس التي بلغت هي ايضاً خريفها الروحي، تظهر احياناً أقلّ اضطراماً لله ممَّا كانت عليه في ايام الصيف المشمسة، بيد أنها قد تعدّت منذ زمن طويل حقبة النموّ الصعبة، والقمة مغطاة بأثمار شهية. لقد انتهى التكوين البطيء والشاق لاتحادها مع الله، وهي الآن تتمتع به. هذا هو بذل الذات الذي اضحى لديها حالة عادية هنيئة.

فالنفس ترجع الى الله، في كل ظرف، بسهولة و كأن الامر بديهي. و تتمّم كل اعمالها ببساطة وبلا تسرع، تحت نظرة الالهي، لكنها لا تتميّز عن النفوس الاخرى، فهي لا تتفرد ولا تصنع أي شيء غير اعتيادي من تلقاء

ذاتها كما انها لا ترتبك بطرقٍ مزعجة لأنها كلها لله. هي تكتفي بإتمام مشيئة الله ببساطة وبلا تصنّع. انها انيسة وطيّعة، لكنها لا ترتبط بشيء ابداً ولا تؤسَر: فيسوع لا يسمح بذلك لأنها ملكه هو، وهو غيور على جمالها. انها تعيش متخفية بقدر ما يريد يسوع، لا اكثر ولا اقل. و حدسها يدفعها نحو الحياة المتواضعة المجهولة المتوارية لأنها تجد في الخلوة ينابيع اكثر عذوبة لتروي العطش الذي يعذّبها.

لكن هذه النفس البسيطة و المجهولة بهذا المقدار، التي قلما يقدّرها العالم، تحيا في الحقيقة فوق الاحداث الدنيوية. حياتها تحليق نسر في اجواء الله الواسعة، و كلما اخترقت هذه الاجواء رأت الافق يتّسع أمامها دون توقف: إن عليها ان تقطع اللانهاية.

يا لها من حياة مغبوطة و يا له من توقان مقدس! ما اسمى حياة الاتحاد هذه، ثمرة الملايين من افعال بذل الذات، تجمعها النفس البسيطة باجتهادها و صبرها.

المقالة السادسة

بلوغ النفس كمال ممارسة بذل الذات

ان حياة الانسان هي سلسلة لا تنقطع من الواجبات، هي تعاقب حوادث مبهجة و محزنة.

العقل البشري لا يرى الا الحاضر، اما الله فيحيط بمجمل الاحداث التي تؤلف الحياة بكاملها. وهو قد سبق فرتب تفاصيلها كلها، و حدّد كل الاوقات مازجاً الهيّنات بالمضنيات، و الافراح بالأحزان، و نجاح المساعي بالخيبات. وحدَّد للحياة دوامها و نهايتها. و كل شيء في مقاصده الالهية يجب ان يؤول الى مجده العظيم و تقديس مختاريه.

و النفس البسيطة التي اكتسبت بكثرة الممارسة عادة بذل الذات، تستسلم لقيادة الله في كل حوادث الحياة. و هي اذ تجهل المستقبل ولا تريد ان تعرف عنه شيئاً، فهي تكتفي بأن تُمسك بيد الله و ترافق سيّدها طيلة نهارها. انها لا تعيّن لدليلها الطريق، و لا تفرض عليه المحطات، فذلك كله من شأن الله. امَّا دورها هي فهو ان تتمسك باليد التي تقودها و تمضى في سيرها. انها لا تُسرع ولا تُبطئ اكثر من دليلها، ولا تطلب اليه البتة ان يسرع في المسير. فهي تعرف ان الله سيّد الزمان و الحوادث و انه سيبلغ المصير في الساعة التي سبق فحددها.

و النفس التي يقودها الله في الحياة لا تدهَش من شيء فالمخلوقات التي تصادفها في طريقها تأتي كلها لخدمتها لأنها تُمسك بيد الله. بيد أن كثيراً منها لا يخدمها إلا عن غير رضى وهي تعلم ذلك و لاتهتم له و لا تغتمّ بل تلاحظ ان كثيرين يسعون لايذائها، لكنها لا تخاف شيئاً إذ هي بقرب الله. و كثيراً ما لا تفهم شيئاً من الحوادث المتتابعة حولها ولا من التغيرات الحاصلة فيها، فلا تهتم لجهلها هذا إذ تعرف ان بيد الله مفتاح وقائع التاريخ جميعها و تفاصيل حياة كل انسان. لقد علمتها الخبرة ان بعض الحوادث التي لا اهمية لها في الظاهر حُدّد ان يكون لها اعظم النتائج ، و ان حادثاً لا اهمية له في الخارج قد أراده الله ليجنبها خطراً ما. و هكذا فهي لا تحكم على شيء بأنه تافه و قليل الاهمية في حياتها، كما انها تتقبل أقلّ الواجبات و ابسط

الحوادث، و اصغر الصلبان بعظيم الاحترام: فهي تعرف ان هذه كلها فتائت من القربان المقدس تحوي، على صغرها، حضرة الله الكاملة.

انها لا تُميزّ بين الواجبات التي عليها ان تتمّمها، و الصلبان التي عليها ان تحملها، فتتقبّل هذه و تهمل تلك، لأن لها كلها قيمة واحدة امام الله. كما انها لا ترى مُبرّراً لتتميم هذا العمل بسرعة لكي تبدأ عملاً آخر، فكل شيء في نظرها ذهب خالص، و كنوز الهية، و ليس عليها إلا ان تجمع دون انتقاء.

النفس البسيطة لا تتشكّى ابداً، لانها لا ترى مَن او ما يُمكنها ان تتشكى منه. كل شيء فائض لديها والله يأتيها مع كل برهة مغدقاً نعمة غير المحدودة. الخلائق كلها تخدمها، راضية او مكرهة، و الحوادث تتدبرّ بطريقة عجيبة دائماً لمنفعتها.

انها لا تتشكى من ان الوقت ينقصها لتتفرغ للصلاة، فكل شيء بالنسبة اليها هو وسيلة لتتحد بالله. انها لا تتذمر من المعاكسة التي تعترضها ظلماً، فهذه المعاكسة تدخل في مقاصد الله. انها لا تلوم الآخرين ولا تنتقد مسلكهم لأنها لا تعرف نياتهم. انها تكتفي بتتميم واجبها من غير ان تبتغي بافراط نجاح جهودها.

كثيراً ما تضطرب افضل النفوس عندما ترى عُقم عملها الذي اقدمت عليه بخلوص نيّة لمجد الله، فتتحسر على هذا الاخفاق و لا تتعزّى إلا بصعوبة. اما النفس الروحية حقاً فلا تقع في هذا الانحراف ، لأنها تعرف ان الله كثيراً ما يريد الجهد و التعب، لا النجاح. فلنترك له امر الاعتناء بمجده إذ لن يمنعه احد عن بلوغه. ولا نغتمنّ لإخفاق يبدو معاكساً لمقاصد الله، فأفكار الله اوسع من افكارنا، وهي تشمل الخليقة كلها و تمتد الى الابد.

لعمري! ان حياة كهذه لمليئة بمفاتن إلهية! فاشرعي يا نفسي منذ الآن في ان تحيَيها. لقد قدمت لله فعلك الاساسي اذ استسلمت له محبة فيه، فرافقي الآن دليلك خلال واجبات النهار و حوادثه و اتعابه كلها. اكتفي بأن تحبّيه. تقبلي ما يعطيك اياه. أتّمى ما يأمُركِ به، احملي الصلبان التي يُرسلها لكِ، ثم اتركي له الحرية ليصنع فيك و بك كل ما يُريده. فقداستك مضمونة، وكذلك سعادتك.

يا مريم الام الحنون، اني احبك بقدر ما يستطيع قلبي ذلك و اريد ان ابقى بقربك دائماً كيعقوب بقرب امه. فيا رفيقتي الالهية علميني سرَّ ارضاء ابي حتى يباركني و يقدسني.

المقالة السابعة

بذل الذات و الهفوات العارضة

ان النفس القليلة الخبرة تظن انها تتحرر من كل خطيئة، منذ بذل ذاتها للّه: فتغضب و تقنط عندما تلحظ ضُعفها. لذلك يجب ان يُجمع بين ممارسة بذل الذات الايجابية و ما يمكن ان يُسمّى ممارسته السلبية.

لا جرم أنه ليس هنالك شيء معاكس لبذل الذات اكثر من الخطيئة فان الخطيئة هي محبة الذات غير المرتبة، هي الانانية . و مع ذلك حتى النفوس المبذولة الوف المرات ليسوع تقترف الهفوات. و لكن التناقض هنا ليس إلا ظاهرياً، وهذا ما يُهم ان نفهمه لسلام النفس.

هناك، كما يقول القديس اوغسطينوس، حبَّان يتنازعان السلطان على النفس: حب الله وحب الذات. و حب الله حتى الازدراء بالذات، هو الحب الكامل؛ اما حب الذات المفرط حتى كره الله فهو الخطيئة المميتة، هو تهديم عرش الله في القلب. و عندما يسود الله في النفس فهو قادر على سحق عدوّه: حب الذات. لكنه يكتفي بأن يقوى عليه و يتركه خاضعاً لسلطانه. فالله لا يُريد ان يختفي حب الذات دفعة واحدة من القلب الذي استولى عليه هو، بل يسمح له بأن يبقى عائشاً فيه ولكن في حالة عبودية و مذلة. والله يتصرف هكذا لأسباب كثيرة يُريدنا ان نتبين بعضها.

انه لمفيد ان يسكن الفلسطينيون بجانب الشعب المختار فالعدو المهدّد و المستعد دائماً للهجوم يضطر النفس الى السهر. و النفس تغفو على اهمال رخيّ، ان لم يكن لديها جهاد تقوم به. وعندئذ اين تكون قوة الفضيلة؟ ولكن ما دام هنالك حرب فالنفس تضعَف احياناً وعندئذ تقع في الخطيئة. فالخطيئة هي الوضع الطبيعي لهذه المعرفة الدائمة التي جعل الله الانسان فيها على هذه الارض. لان الله اذ اراد لنا العراك وجب ان يسمح بالسقوط، و مجده يكون بان يستخلص الخير من الشر ولا يدع للعدو إلا انتصارات وقتية عابرة.

و من جهة ثانية، فالسماح بوقوع الشر هو، في مقاصد الله، افضل صيانة للتواضع. فالنفس البشرية تنخدع كثيراً في امر استحقاقها الشخصي. و ما عد القديسين لا يعدل احد في هذا الصدد. فالنفس بحاجة الى اختبارات يومية متكرّرة، وهي لا تكف إلا مع الزمن عن ان تنسب الى ذاتها استحقاقاً ليس لها. و مع ذلك يجب ان يذكرها الله في كل برهة بعجزها التام عن بلوغ الخير بدون نعمته. ولهذا يسمح الله بهفوات صغيرة متكررّة بل يسمح ايضاً بأن تبقى النفس عُرضة لنقائص صغيرة في خلقها، لقلة الصبر، و التأثر المفرط، والحسد.

تحت ظواهر عدم الكمال هذه يخفي الله الكمالات الحقيقية التي يبثها في النفس، والتي يُنميها فيها كل يوم، تارةً عن غير علم منها و طوراً بمشاركتها السخية.

وعلى كل حال لا تتأصل هذه الهفوات في النفس التي بذلت ذاتها لله، بل كلما نبتت الاعشاب الرديئة اقتُلعَت، اما النبتة الصالحة فتكبر وتنمو بلا توقف.

وهكذا نمحو كل يوم، بالانسحاق والتوبة، كل هذه الهفوات الصغيرة، التي يسامحنا الله بها ايضاً فننمو في افعال المحبة و بذل الذات ويغمرنا فيض من النعمة الالهية.

المقالة الثامنة

العقبة الكبرى في حياة بذل الذات لله

ان في حياة البذل عقبة كبرى تصطدم بها بعض النفوس وتغرق. وهذه العقبة هي زهوّ خفي، كبرياء مقنّع تعمي النفس و تجعلها تبالغ في تقدير صلاحها، مما يولّد عندها الغيظ والحنق بعد سقطاتها.

آه! ما اخبث هذا السم! انه يمتزج بكياننا و ينتشر في الجسم كله. هذا السم لا يقتل عادة، بل يُضعف، وينهك فتحسّ النفس التي يجتاحها بأنها تذبل، لكنها لا تعرف السبب.

و تمر السنون الاولى من الحياة الروحية في حرارة كبيرة. و تحاول النفس بحماسة تحطيم عيوبها و اكتساب الفضائل؛ و تكثر من تشديد العزم و امتحان القلب و تزكي حماسها بالتفكير في انها ستصبح بعد مدة كاملة وبلا خطيئة. و تمر الاشهر، و تتتابع السنون و تبقى القرارات عينها و الجهود عينها و يبقى الضعف عينه. و يتكون في قرارة النفس مع الزمن حزن و ضعفُ ثقةٍ بالله، وتفقد النفس رجاءها في الوصول الى القداسة. و تظهر لها هفواتها المتكررة كعقبة كؤود تحول دون بلوغها الكمال. و يظهر لها ما نوته من بلوغ القداسة في شبابها الروحي كأحلام بعيدة: لقد تبددت احلامها و اضحت تقول ان القداسة ليست لأمثالي.

انك لمخطئة ايتها النفس المسكينة، لقد جُعلت القداسة لك. ولا ينقصك، لتكوني كاملة الا شيء واحد: ان تعرفي ذاتك امام الله كما انت. انك في كل حين، ضعيفة جداً وعرضة للخطيئة فاعترفي بهذا بكل رضى. انك عاجزة عن كل خير فاقرّي بهذا ببساطة امام الله. ستخطئين كل يوم مع انك تقصدين بإِخلاص وصدق ألاَّ تعودي الى السقوط فارتضي بما قُسم لك بشجاعة.

انه لمن اعظم اسرار الحياة الروحية الا تضطرب النفس بعد سقطاتها؛ لكن هذا سرّ لا يستطيع غير الله ان يبثه في النفس. فهو يفترض فيها، من جهة، معرفة فائقة لضعف الارادة ولافراط تقلب الفكر البشري. و يفترض فيها من

جهة اخرى خبرة شخصية عميقة لصلاح الله الذي لا يكل ، ولحنانه نحو خليقته الصغيرة الذي لا ينفذ. ان في يسوع من الصلاح والحنان و التنازل ما لا يُتيح لأي ضعف ولأية خطيئة ان تحوله عن نفسٍ مخلِصة.

كلنا نسير على هذه الارض كمنفيين، نحو وطننا السماوي و الطريق طويلة و مملة. فهل هناك من عجب ان يشلّ العياء احياناً سيرنا او أن يصرعنا في الطريق؟ و احياناً تجتذب الاشياء التي يصادفها نظرنا طوال الطريق انتباهنا كثيراً، و تلهينا عن سيرنا الى الامام. مع ذلك لا نتوقف ابداً عن السير، و لا تراودنا ابداً فكرة النكوص الى الوراء.

كان طوبياً الفتى، في سيره الى بلاد الماديّين، يتوقف احياناً في الطريق فيستريح و يروي عطشه على ضفاف البحيرات التي يمر بها. و لعلّ هذه الاستراحات قد اخرته طويلاً في سيره، و عرّضته للاخطار، لكن الملاك كان ساهراً يتدارك قلّة تبصّره.

كذلك يساعد الله النفوس الطيبة. انه يتفحص اعماق القلوب و يرى فيها الارادة الصادقة بان تكون النفس له، فيغفر لها بارتياحٍ هفواتها العارضة نتيجة ضعفها.

ان كبرياءنا تحول دون فهمنا كيف يمكن للارادة ان تكون صادقة في وعودها لله بأن تكون امينة له ثم تقع بعد برهة في خطيئتها السابقة.

و هذه الكبرياء تعمينا ايضاً عن الفهم بان تلك الوعود و تلك السقطات قد تتكرر حتى اخر حياتنا دون ان تُنقص من رحمة يسوع و شفقته على ضعف البشر.

يا يسوع! ما اقل معرفتنا لسرّ تقديس النفوس! نحن نظن ان لنا فيه قسطاً وافراً! لكننا، و ا أسفاه، لا نسهم فيه إلا باعترافنا بتقلّبنا الدائم، من غير ان نتعب ابداً من سقطاتنا. و أمَّا الباقي فهو عملك.

الفصل الثاني

ممارسة التسليم وقت الشواغل المختلفة

المقالة الاولى

ممارسة بذل الذات وقت الصلاة

يا نفسي، اتبعي الان يسوع في تفاصيل الافعال اليومية فهو يعلمك ان تتمميها بطريقة مقدسة. ادخلي في اثره محراب الصلاة السري فتشربي فيه كؤوس المحبة منزعة.

يا اله الجلال! كيف تستطيع خليقة هزيلة ان تدنو منك، و ان تتحدث في خلوة مقدسة فماً الى فم و قلباً الى قلب، و ان تحسّ انك تريح ناظريك في ناظريها؛ الست انت ذلك الاله العظيم الذي تنحني الملائكة امامه باحترام وهي تستر وجوهها، و يجثو امامه قديسو السماء وهم يرتجفون و يرددون قدوس، قدوس، قدوس هو السيد، رب القوات!

كيف استطيع انا الرماد و التراب ان اكلم سيدي والهي؛ ان اليهود لم يكونوا يجرؤون ان يرفعوا في الصحراء عيونهم نحو يهوه، بل كانوا ينتدبون موسى ليتوسل من اجلهم، وفي تلك الاثناء كانوا ينتظرون عند اسفل جبل سيناء و هم يرتجفون و يكادون يموتون رعدة.

وبعد هذا اجرؤ انا على الدخول الى قدسك و المثول امام عرشك، و مخاطبتك بدالة! فهل خففت لمعان جلالك او تساهلت بحقوقك السامية.

- كلا : فانك ابداً يهوه، اله الابد، ملك الملوك، اله الأجناد السماوية؛ وعلى كل خليقة ان تعبدك معفرة رأسها في التراب.

فعندما تمثلين امام الهك، لا تنسي يا نفسي واجب الاحترام و الخضوع هذا. واعلمي ايضاً ان الله لا حد لصلاحه، وقد جعلك _ كيف اجرؤ على هذا القول _ لقد جعلك مليكة له.

ان استير لما مثلت امام احشويرش الجالس على عرشه في بهاء جلاله الملكي، اخذت ترتجف احتراماً و كاد يغمي عليها؛ لكن الملك الذي تسلط عليه جمالها مد اليها صولجانه الذهبي و قربها اليه بلطف ثم قال لها بمحبة: ان الأمر الذي يخضع له الاخرون لا تخضعين انت له.

فيا لامتياز النفس البسيطة: انها تدخل مساكن الملك باحترام عظيم ولا شك، ولكن بجرأة الاطفال. هي تعرف امتيازها و تستطيع ان تدنو منه و ان تحدثه بالفة، وان تجلس عند قدميه وان تحبه.

ولكن كيف يمكن التحدث مع مثل هذا الجلال السامي؟ ان النفس لا تعرف الا شيئاً واحداً و ليس لديها سوى فعل واحد، هو بذل الذات. كيف نقوم بكل ما تقتضيه الصلاة، كيف نراعي الطرق التي رسمها المعلمون، و نعرف الدرجات، و نميز المقاييس، و نتجنب العثرات و نبلغ بالافكار و العواطف والمقاصد الى قياساتها الدقيقة؟

_ لا تخافي شيئاً يا نفسي! فانت تعبرين بفضل ببساطتك، حيث تتوقف نفوس اخرى مرتبكة.

ان في الصلاة عنصراً مشتركاً بين جميع النفوس، وفي متناول كل الطاقات، و يتفق مع كل الميول. و هذا العنصر هو جوهر الصلاة انه ليس الا اتحاد الارادة بالله. و هذا الاتحاد يتم بفعل المحبة الذي يسلم لله الانسان بكامله. هكذا تصلين يا نفسي طيلة النهار من غير ان تعلمي ذلك. اذ انك، ببذل ذاتك باستمرار و انتباه، تصبحين وكانك متأصلة في جو الصلاة والصلاة تمسي تنفسك و حياتك، فهل انت بحاجة لتتعلمي التنفس و الحياة.

فما هو اذن سر الصلاة، و ما هي طريقتها؟– ان سر الصلاة هو ان تبذلي ذاتك لله بفعل محبة، هو ان تسلمي روحك و جسمك للارادة الالهية ولكل اوامرها لك. وطريقة الصلاة هي ان تجددي هذا الفعل باستمرار، وأن تجعليه يتغلغل في اعمال حياتك والامك وافراحك كلها. فمتى تم لك ذلك تم اول الواجبات و اهمها.

فاذا فهمنا الصلاة على هذا النحو اصبحت الصلاة بسيطة وعميقة. هي بسيطة كالاله الذي تحبينه، و عميقة الغور كمحيط المحبة اللامتناهي الذي تغوصين فيه. هي واسعة و تفتح لك آفاقاً لاحد لها، لان الله يسر بأن يبني على هذا الاساس ا لبسيط جداً.

لقد انهيت عملك الرئيسي والله يبدأ الان عمله. انت تطلبين طريقة، و الله سيدلك عليها، فلا يستطيع انسان ان يعلم النفوس طريقتها في الصلاة لان كل واحدة تتبع طريقة خاصة بوحي الله و قيادته.

إن المرشدين الروحيين يستطيعون أن يرسموا بعض المعالم، و يقترحوا بعض القواعد، و يرسموا بعض السبل. وهذا لعمري عمل مفيد ولاشك، لكنه يخلو من التدقيق والوضوح؛ فذلك هو عمل الله. فهو الذي يعلم النفس ، في خفايا القلب، و النفس المستسلمة لفعله تسمع صوته.

آه! ما اهم ان يكون المرء طيعاً في يد الله و ان يتقدم الى الصلاة متفرغاً من كل تعلق بمفاهيمه الخاصة.

المقالة الثانية

ان الله يقود بذاته النفس البسيطة في مسالك الصلاة

ان النفس التي تمثل امام الله في الصلاة يجب ان تغور في لجة الاحترام امام جلاله السامي، ثم ترتمي بين ذراعيه بجسارة بنوية و تفيض له الحب فجوهر الصلاة العقلية هو فعل المحبة الذي يسلم النفس لله: ذلك ما يطلبه السيد من كل نفس.

والنفس تحاول ان تتمم هذا الفعل بهدوء و بساطة من غير اجهاد عقلي او عناء. وبعدها تجعل ذاتها تحت التأثير الالهي قدر استطاعتها، مصغية الى الله ومتوقفة بسلام تحت نظره، معيدة فعلها احيانا بأكثر جلاء فتتمتمه، ان شاءت بشفتيها، او تصعده من اعماق قلبها. وعند كل غفلة او تشتت فكر او تجربة تجدد بذل ذاتها لله بفعل محبة جديد. هذا ما يطلبه الله دائماً من النفس في الصلاة. اما اذا تَطَلّب منها اكثر، كما يحدث غالباً، فهو يقول لها ذلك ويفهمها اياه. ان لديه طرقاً كثيرة لمخاطبتها والتجلي لها، وهذه الطرق كلها فعالة وناجعة. انما يجب ان تستجمع النفس افكارها و ان تستسلم وتصغي، و ان تكون طيّعة، والا تستبدل افكاره بافكارها.

ان الله قد اعد لكل نفس طريقتها للصلاة، وله وحده ان ينظم سبل الحوار معه. فهو لا يرتبط بطريقة ولا يتقيد بأية قاعدة ثابتة.

انه السيد، يمسك بيده كل النفوس و يحركها ويوجهها و يكيفها كما يشاء. و ينسجم مع طبيعة كل نفس و ميولها واستعداداتها: و يهمل احياناً كل نواميس الطبيعة ويهزأ بكل سبل الخطيئة للمستقبل و يقلب كل البرامج. فعله عجيب قلَّما يُلحظ أَو يُدرك، لكنه ابداً صالح. يسمح احياناً بان يُرى فعله هذا، ويساعد هو نفسه على اكتشافه، حتى انه يأمر بوصفه و عرضه لتقدير الجميع و احترامهم. و قد ترك بعض القديسين والقديسات وصفاً جميلاً لفعل الله فيهم، لكن هذه الحالات نادرة. فقد قضى تدبير الله أن يرجئ رؤيتنا لعجائبه في النفوس

حتى تنتقل الى ملكوته السماوي، و من التطاول ان يريد المرء معرفة اعمال الله و سبر غورها في هذه الحياة. و كل نفس طيّعة ترى في ذاتها فعل الله بصورة كافية لاتباعه و غير كافية لأدراك أسراره.

و قد يدعو الله النفس احياناً الى التأمل فيغمر عقلها بنور حول احدى الحقائق الكبرى و يدعوها لتزداد فحصاً لها و تكون هذه الحقيقة احد اسرار الإيمان: كالقربان المقدس، او الآلام، او طفولة الإله المتأنس، او احدى ميزات او احد الحوادث الفريدة من حياة يسوع ووجهه، او تكون احدى صفات الله الحسنى كصلاحه الفائق، او قدرته ، او حضوره في كل مكان، او كماله السامي المطلق، وقد تكون احد الاهداف الاخيرة او احدى الحقائق الابدية، و ايضاً شفاعة العذراء القديرة، او شركة القديسين، او احدى الفضائل كمحبة الله و الامتثال لمشيئته الالهية. فتقف النفس طائعة ناظرة و مفكرة.

و ان شعرت بميل الى التأمل فهي تكتشف معاني جديدة و آفاقاً اوسع و مصادفات مدهشة و انسجامات عجيبة. و هذه علامة على ان الله يدعوها للمزيد من التوقف و التعمق في التامل، انه يريد ان يغرس في النفس اعتقادات عميقة واعية يتولى تثبيتها فيما بعد بنور فجائي و رؤية حدسية.

واحياناً لا يوحي الله الى النفس بميل الى التأمل فتعجز عن تركيز فكرها. و الحقائق الاكثر وضوحاً وثبوتاً لا تجد لها في العقل أي صدى. ويولد التأمل في النفس ضجراً طاغياً، فيما يبقى القلب محباً. و تتكاثر العواطف و تتزاحم فتخرج من القلب جياشة كالماء المتفجر من نبع غزير. ولا تكاد النفس تمثل في حضرة يسوع حتى يحصل الاتصال الالهي بينها و بينه فتتفجر افعال محبة و هتافات حنين، و مناجيات مضطرمة و توثبات ملتهبة و تحسرات مريرة على الماضي. و كثيراً ما يفيض الشعور فيتدفق بكاء غزيرا.

ان الله يقود هذه النفس، وهو الذي يوحي اليها بهذه المشاعر الملتهبة، و عليها ان تطيع و تتبع الجاذب الالهي و غالباً ما تشير هذه العواطف و الاحساسات التقوية الغزيرة، الى ربيع الحياة الروحية، اما الخريف فيكون اكثر هدوءاً واوفر ثماراً في الفضائل. لكن النفس تتقبل عطية الله اذ تعرف ان هناك زمناً تزهر فيه الشجرة و آخر تحمل فيه الثمار. انها لا تريد ان تستبق ساعتها، فللبستاني الإلهي ان يعرف ما يوافقها.

و احياناً لا توحي هذه العواطف للنفس شيئاً، ولا يستميلها دفق قلب كله لهب. و يظهر لها التأمل من جهة اخرى تمريناً مملاً وعقيماً. فتؤثر بالعكس ان تغوص في العزلة و ان تبقى فيها صامتة بقرب الله. فيحتاجها غالباً انفعال عميق لكنه هادئ. هي تحس بالغبطة بقرب الله مع كونها تكاد لا تخاطبه فحضرة هذا الكائن اللامحدود تغمرها، و تجعلها في حالة هيبة عميقة بيد ان محبته الفائقة تفعمها بهجة فترتمي في حضن الله كما في لجة لا قرار لها.

كل هذا يتم ببساطة في اعمق اعماق النفس بحركة تلقائية وليس بكلمات صريحة. فتبقى النفس تحت تأثير لقائها بالله و منذئذٍ تصبح اعمالها كأنها معطرة بطيب الهي. فتتمنى لو يدوم هذا الاتحاد العذب الصامت الى الابد. لكن الله افكاراً اخرى، فتعقب فترات اللقاء الالهي اوقات برودة وجفاف و تظن النفس ان الله يرذلها فتذوب أَسى و تئن. ثم تعود الشمس الى الظهور و يدفأ الجو من جديد و يطفح القلب بالفرح الالهي، و كأن السماء تنفتح و يطلّ الله بوجهه من جديد.

وهكذا يقود الله النفس عبر آلاف التقلبات و التطوّرات حتى القمة حيث تنفتح امامها من جديد آفاقاً اخرى تغريها على ان تحثّ الخطى.

و لكن ماذا ينفع وصف كل هذا يا يسوع؟ فكل نفس طيعة هي عالم من المعجزات، و كل واحدة تتبع طريقاً لها لا يعرفه احد سواك، و انت ترسمه وحدك. و انا لا أريد إلا ان اكون طيعاً، اصغي باحترام الى صوتك العذب، و أجري وراءك عبر كل التغيرات، و كل التقلبات التي تحدثها في نفسي. فيكون سبيلي و طريقتي ان احبك في كل شيء و على الدوام، و ان استسلم لهديك و ان اسألك بلا انقطاع مزيداً من الحب.

يا مريم العرو س المقدسة، الحمامة السرية، علميني ان اسكن " في نخاريب الصخر" و ان اقدم لسيدي والهي سجوداً مقروناً بالمحبة الفائقة.

المقالة الثالثة

ممارسة بذل الذات في التمارين الروحية

ان النفوس التقية لا تكتفي بالصلاة، فلديها مجموعة تمارين روحية لتنمية النشاط و تغذية التفاني، و هذه تؤلف طعام النفس الروحي و اهمها القداس الالهي و المناولة و المطالعة الروحية و زيارة بيوت الله و صلاة اسم يسوع و الاعتراف. ولا يسوع الاقلال من اهمية هذه التمارين و غيرها، ولا الغلو في مدى طاقتها. فالله يقود النفوس و يكملها بحسب مشيئته، و يستعمل لذلك طرقاً متنوعة لا عد لها، تحلّ التمارين التقوية بينها، عادة، محلاً مرموقاً ولكنه مع ذلك يهمل هذه التمارين احياناً و يستغني عنها.

وواجب النفس هو ان تتبين ما هي هذه المشيئة الالهية بالنسبة اليها و ان تتبعها بامانة حالما تعرفها. فان كانت تعيش في دير، فيما بين غزارة الوسائل الخارجية للتقدس، توجب عليها ان تعنى في استعمالها. و ان كانت تعيش في العالم و في زحمة المشاغل، او كانت تعول اسرة و تهتم بتحصيل خبزها اليومي، فهي لا تستطيع ان تتقيد بتلك التمارين بمثل تلك الشدة او القياس، كما أنها غير ملزمة بذلك، فالله الغني بالرحمة و الرأفة يعطيها بطرق اخرى النعم المنوطة بالتمارين الروحية. ان الطريق التي تقود الى القداسة رحبة و تتسع لكل النفوس المخلصة.

من تراه يصدق ان النفوس التي تنعم بفيض من الوسائل الروحية، قد تجد في هذه الغزارة عيها عقبة تحول دون بلوغها الكمال؟ و مع ذلك فهذا يحدث في الواقع.

مسكينة الطبيعة البشرية! ان تركت لحكمها الذاتي اصطدمت بكل حجارة الطريق. فمتى تراها تدرك ان السير في طريق الكمال سيراً فعالاً لا يكون بقوة الانسان وحده، بل بسيره مستنداً الى ذراع الله؟

هناك نفوس تريد ان تصل الى الهدف بسرعة. فهذا ولاشك شوق نبيل. ولهذه الغاية تكثر من التمارين الروحية و المطالعات و الصلوات و الاحاديث التقوية. لكن كل شيء لا يسير بحسب مشتهاها: فقراءة الكتب الروحية تثقل

ذهنها بدل ان تنيره، والاحاديث الروحية تترك في قرارة النفس حزناً غامضاً و فراغاً اليماً، و الصلوات الكثيرة تورث الضجر و النفور، فاين هو الخلل؟ لقد كان، و اسفاه للارادة الخاصة نصيبها في هذا الاندفاع. و كانت هذه النفوس تروم ان تستبق الله، كالولد الذي يترك يد امه و يسير وحده في الطريق الواسعة، فلا عجب اذا وقع و اصابته الجراح.

ليس من تمرين روحي يفيد النفس ان كان خارجاً عن ترتيب الله. فاهتمام النفس الدائم يجب ان يكون بان تسلم ذاتها كاملة لله، ثم بان تتخذ الوسائل التي يعطيها الله واحدة فواحدة، بالشكل الذي يحدده وفي الظروف التي يحيطها بها، وفي الوقت الذي يعينه لها. أَما محاولة التمسك بها عندما نفقدها بامر الله، و الرغبة في اطالة زمنها و إِكثارها و التشدّد في تتميمها خلافاً لارادة الله فهذا مما يعاكس الترتيب الالهي المعد لكل نفس منذ الازل.

فيجب اذن ان تمارس النفس تمارين روحية بقلب متفرغ جداً، و ان تقصي عنها كل تسرع و كل تعطش غير معتدل، كما تبعد كل جبن و كسل وملل.

يعتقد يوحنا الصليبي ان كثيراً من النفوس التقية تعذبها نقيصة كسماها الشراهة الروحية، فمن يستطيع تخطئة مشورة هذا القديس و المعلم الخبير في ارشاد النفوس؟ ان الافراط و عدم الاعتدال يذيب الصحة الجسدية لانه نقص في التسلط على الذات و ضعف في الارادة التي لا تعرف ان تردع شهوات الحواس الجامحة. و هذه النقيصة نفسها، على الصعيد الروحي تدمّر صحة النفس. انها جوع و عطش مفرطان، و دليل ضعف في التسلط على الذات و تعلق زائد بأرائنا الشخصية.

ان النفس التي ابتليت بهذه النقيصة تظهر بوضوح انها لم تتفهم بعد تعليم بذل الذات المعزّي. انها تريد ولا شك ان تستسلم لله ولعنايته، و لكن على طريقتها هي، وفي الزمن الذي تحدده هي، و مع التحفظات التي تضعها هي، و كأنها تريد ان ترشد الله الى الوسائل الواجب اتخاذها و تهيئ له ما من شأنه أن يعجل في عملية تقديسها.

مسكينة هذه النفس! انها تتحمل مشاق لا جدوى فيها، و اسوأ من هذا فهي بتسرعها غير المعتدل، تعرقل عمل الله.

المقالة الرابعة

ان النفس المستسلمة لا تهتم في تمارينها الا لترتيب الله

تعلمي يا نفسي ان تنمي تمارينك الروحية بكل هدوء وسلام. لا تحذفي شيئاً ما يفرضه عليك الواجب ولا مما يطلبه الله منك، ولكن لا تثقلي عاتقك بممارسات مفرطة.

انت ابنة الله، وهو يفهم جيداً لغة القلب. فقولي له ورددي انك له إلى الابد فذلك ما يبتغيه منك. ثم ادّي تمارينك بالدقة و الكمال اللذين تتمين بها كل اعمالك. و بعد هذا كوني في سلام فالله يتولى امر كمالك يوم تضحين بكل شيء لارضائه.

و اسهري خاصة الا تكون لك احاديث روحية إلا مع اشخاص عينهم الله و في الوقت الذي يريده. فان التماس الاشخاص الروحيين كثيراً ما يجعل في النفس فراغاً كبيراً لانها تلتمس في ذلك اللذة و التعزية اكثر من البنيان.

ولا تقومي بقراءات روحية الا بحسب أمر الله وفي الزمن الذي يحدده. فان هذه القراءات ، خارجاً عن مشيئة الله، لا تولد الا الاضطراب في النفس و تضعها في الظلمة بدل ان تنيرها، و تلبكها بدل ان تساعدها و تقلقها بدل ان تطمئنها.

انه لمن هو ضروري الا تكون للمرء اية ارادة خاصة واية مبادرة غير التي تدفعنا لنكون حقاً لله بلا تزعزع في جميع الحوادث؛ في النجاح و الاخفاق، في التعزية و الشقاء، في الظلام و النور، في غزارة الوسائل الروحية كما في شحها.

فالنفس التي صارت الى مثل هذه البساطة ليست بعد قابلة للاغواء و الضلال لانها تتمسك فقط بمشيئة الله. هي دوماً فرحة، دوماً غنية لا تتشكى من ا حرمان روحي لانها لا تعرفه ابداً. انها تعيش في فيض خيرات إلهها

الذي يملؤها بمقدار استيعابها في كل لحظة من لحظات النهار. و كالاناء الذي ملأه المحيط لم يعد لها ما تشتهيه بعد.

ايها الاله المالئ الكل! ما اقل معرفتنا بك و تقديرنا لك. ان النفوس تهلك من كثرة رغائبها المعاكسة لترتيب الله، و تذيب ذاتها في جهود باطلة و شكاوى مرة.

فبعضها يطلب باصرار مزيداً من المناولات و الاماتات و الصلوات. وبعضها يتوق بقلق الى العزلة و الخلوة و الصمت. و غيرها يشكو من اعباء المشاغل و قلّة الوقت و الحاجة الى اشخاص مرشدين روحيين. و كلها تقريباً لها رغائب تعرضها او حسرات وهموم تبديها.

اما انا يا يسوع، فاريد ان اسرّ بك وحدك و بمشيئتك الالهية. انني لا ارغب في شيء ولا ارفض شيئاً ولا اطلب إلا ما علمتني ان اطلبه و ابتغيه:" ليتقدس اسمك، ليأت ملكوتك، لتكن مشيئتك كما في السماء كذلك على الارض". هذه هي حدود رغباتي لانني اعرف ان الخير الوحيد المشتهى على هذه الارض و في الابدية هو ان نكون لك.

اجل، انني اتوق ولا شك ان اتناولك في سرّ الشكر، و ان اقتنيك في قلبي، و ان استسلم لمحبتك لي وانعامك علي، لكنني لا اتوق الى هذا الا اذا كانت فيه مسرتك. و ان كان عليّ ان اعيش في القفر كالنساك من غير ان اسعد بتناولك كل يوم، فقد اموت من النحول و الشوق، لكن لن تفلت اية شكوى من شفتي يا يسوع، ولن يتحسر قلبي على شيء لانني اعرف انك انت ارتضيت لي ذلك.

و انا اتوق ايضاً بلا شك يا يسوع، الى العزلة و الخلوة فهي تجتذبني و أشعر بك فيها اقرب الي و اكثر حباً والفة وتغمرني فيها عظمتك بنصيب اوفر حتى يجيش قلبي تهليلاً وحباً. ولكن ان اردت ان تبقيني في ضجيج الاعمال ترهقني المشاغل و الارتباكات و المكاره المختلفة الانواع، فانا ارتضيها طائعاً يا الهي لان "يدك هي التي تمسكني فيها".

سأكون سعيداً ولاشك عندما تضع عنايتك في طريقي نفساً تحبك انت وحدك و تقودني نحوك، وتعلمني حبك وتصلح نقائصي، فاشكر لك ايها السيد هذه النعمة لانني اعرف انه ليس اثمن من مرشد خبير و اب محب. ولكن ان ابعده عني واجب او مقتضيات مجدك او فرقتني عنه الى الابد فلن اتشكى لانني اعرف يارب انك انت وحدك تكفيني و انك تقيم عند الحاجة من الحجارة رجالاً قادرين على مساعدتي و تعليمي محبتك.

يا يسوع انني اتعلق بك وحدك بفعل محبة حار و استسلام سخي.

المقالة الخامسة

النفس المستسلمة لله في علاقتها مع العالم

يجب ان تعيش النفس المبذولة لله في هذا العالم على طريقة البشر. فالله لم يعطها طبيعة ملائكية لا يشغلها سوى التفكير فيه و محبته، بل هي تعيش ضمن عائلة أو جماعة رهبانية أو مجتمع، وهناك ألوف من علاقات الصداقة و المنفعة و اللياقة و القرابة تربطها وتسترعي اهتمامها. هذا هو النظام الذي وضعه الله ولا جدوى من مقاومة هذه الضرورة. فالنفس لا تستطيع ان تتخلص من عبء هذه العلاقات إلا اذا توارت في مغارة منعزلة لا يصحبها في عيشتها الجديدة إلا وحوش القفر.

و من هذه العلاقات ما هو مستحب و شريف يكون للنفس بمثابة لهو بريء و تسلية مفيدة ولازمة. و منها ما هو وديّ حميم كالبلسم للقلب الجريح و الحافز للعزيمة الواهنة و المعزّي للنفس الكسيرة، و منها ما هو غير ذي بال لان الدافع اليه هو اللياقات و المصالح: وهي علاقات لا تدوم طويلاً لانها غير ثابتة كالسبب الذي اوجدها. و منها ما يجبر المرء عليه و تمليه الحاجة أو الخضوع او الخوف و تفرضه الطبيعة او الوضع او الاعمال او البيئة.

ان كثرة هذه العلاقات و تنوّعها يؤلفان بالنسبة للنفس المتهورة عقبة كبرى لبلوغ القداسة.

فهي تمكن تلك العلاقات من ان تحيط بها كالشباك فتفقد فيها حريتها و انعتاق قلبها و استقرارها، أي اساس كل حياة كاملة.

فتارة ترضيها هذه العلاقات و تفتنها و تتركها غافية على شفير الهاوية و طوراً تشغلها و تزعجها و تقلقها و تسلبها وقتها وراحتها، و احياناً أخرى تعاكسها و تحزنها. و تثير فيها الحسد و البغض و تبعد افكارها عن اله السلام.

فكيف تستطيع ان تتبع يسوع في صحراء قلبها و تغلق بابه و تجلس هادئة عند قدمي معلمها و هي متعبة مأسورة تتجاذبها الاهواء.

فعلينا اذن ان نرتب علاقاتنا بحكمة مع الآخرين فنسقط منها ما هو غير مُجدٍ، و نخفف النافع و نبقي ما هو ضروري فقط. ان النفس التي استسلمت بسخاء ليسوع تتمم بسهولة المرحلة الاولى من عملية الحذف هذه. هي لا تحب العالم و لا تخشى انتقاداته او تأبه لسخريته. كما انها تعلو برفة جناح فوق تعيير العالم لها او عدم رضاه: فتحطم وتحذف و تنقي، غير محتفظة لذاتها الا ما تفرضه اللياقة او الضرورة . و هكذا، اذ تتيقن انها تعمل مشيئة الله، لا تألو جهداً في السيطرة على عواطفها والاحتفاظ بهدوء فكرها و اتزان تصرفاتها.

ان النفس الروحانية حقاً لا تكون ابداً اسيرة أي مخلوق مهما كان التعامل معه مستحباً و مغرياً و مهما كان التعلق به صادقاً ونقياً. إنها لا تسلم ذاتها بكاملها إلا ليسوع، ففي قرارة قلبها مكان لا يدخله أي صديق أرضيّ مهما كان حميماً أليفاً، و يبقى بابه مغلقاً لأن الرب وحده ينبغي ان يدخل منه. إنه مسكن الله، خدر يسوع وعروسه النفس، وهكذا فان القلب الذي هو لله بكامله يملؤه الله على الدوام، يملؤه يسوع و يفيض منه. و من ثمّ ينسكب هذا الفيض على الخلائق المحيطة به.

و محبة مثل هذه النفس البسيطة للخلائق لا تعادلها محبة، ان في نقائها او في ثباتها. فهي خالصة من كل حساب و أنانية لأنها من فيض حبها ليسوع. هذه المحبة غير معرضة للتغيرات ولا تخضع للاهواء و تقلبات

المزاج. إنها لا تتأثر بمزايا الناس و جمالهم و استحقاقهم و صلاحهم فان اساسها في الله وحده. انها تستغرب الخيانة والعقوق وقلة الامانة لكنها لا تقنط لانها من الله تنبع وتتدفق.

كما ان النفس الروحانية لا تستسلم كلياً لأية خليقة فهي أيضاً لا تسعى لاكتساب مودة او تقدير أي منها، اذ هي تعرف جيداً ان لا حق لها في ذلك فيسوع وحده هو سيد النفوس و ملكها الاوحد الذي يحق له كل حب و مجد.

و من جهة أخرى لا تجهل هذه النفس ان كل مجد بشري زائل و قريب العطب والخذلان. فقد برهنت لها الخبرة ان ما من خليقة تستطيع ان ترضي القلب طويلاً او تروي ظمأه الى المحبة، فالانسان يشعر بانه مخلوق لغير المحدود.

المقالة السادسة

النفس المبذولة لله تتمتع بحرية مقدسة

هكذا تعيش النفس الطليقة الحرة في خضم عالم من العلاقات المختلفة. فهي تسيطر عليها و تقودها وتحدّد نوعها و ترتب اوقاتها و شكلها. هي تحس بانها فوق الاشخاص و الاشياء المحيطة بها و التي تحاول أن تطغى عيها. فبذل ذاتها المتواصل ليسوع يقف حاجزاً منيعاً امام هذه المحاولة.

و يظن العالم احياناً انه قد اجتاز هذا الحاجز، ولكن بينما هو يتصور انه قد امتلك النفس وجرها الى تياره، اذا بيسوع يدعوها الى داخلها، الى هذا الجزء الصميم الذي لا يستطيع العالم و لوجه؛ فيفصلها عن اضطراب الخارج و يعيدها الى هدوئها المعتاد. لا شيء يمكن ان يسيء الى هذه النفس، لا صديق ولا عدو. فكما انه ليس باستطاعة أي حب او عطف بشري ان يغشاها او يتسلط على قلبها، كذلك لا يقدر أي عنف ان يخيفها ولا اية مصلحة ان تقيدها.

انها تمر في هذا العالم من غير ان تتعلق بشيء، كالمسافر الذي يسرع في سيره. فتحاول المناظر الجميلة و المواقع الفاتنة ان توقفها، لكنها تتطلع اليها و تعجب بها ثم تجوز عابرة، و تتابع طريقها بعزم غير منثنٍ وقد ثبتت عينيها نحو الهدف الذي تريد بلوغه. انها تستريح احياناً ولا شك على حافة الطريق و تغمس خبزها بماء الساقية. وتقطف الثمرة التي تقدمها لها شجرة الطريق، لكنها لا تكاد تتقوى و تنتعش حتى تسرع في سيرها الى الامام.

ما اروع رؤية نفس كهذه تعيش هادئة منعزلة في وسط عالم مضطرب معذب! انها كسنديانة جبارة وسط غابة قطعت اشجارها تكاد الريح لا تحرك قمتها الجبارة، بل تبقى ثابتة هادئة بينما ينحني كل شيء حولها و يقلع ويكسر. وعندما تحمل زوبعة الاشغال العالمية النفوس الصغيرة في التشتت و الاضطراب تصمد النفس الروحانية غير متزعزعة و تظل جبهتها مرتفعة بفخر الى السماء وقلبها متأصل في يسوع.

آه! ما اعظم سر الاحتفاظ بضبط الذات و امتلاك القلب و السيطرة على العلاقات بدل ان يدعها المرء تطغى عليه و تقوده! ما من احد يستطيع التوصل الى هذه السيطرة على الذات الا الذي تخلى عن كل منفعة شخصية زمنية وعن كل تقدير بشري و كل مودة و كل اهتمام بالمستقبل.

علمني هذا السر الالهي يا يسوع. اربطني بك بقوة حتى لا تستطيع اية خليقة ان تفصلني عنك. انا اشعر بأنني ضعيف كل الضعف. كل شيء يؤثر في: نظرة من صديق، حركة من عدو، كلمة مؤلمة، ابتسامة؛ كل شيء يثير شجوني و يعكر صفوي. ان العداوة تهدّني والهموم توهنني و الالم يهيج اعصابي و المناقضة تغيظني. بادرة ودية تأسرني و حرمانها يشقيني. كلمة طيّبة تنهضني والمديح يستهويني و الاستحسان ينشطني: وهكذا فانا خاضع لانفعالاتي.

ان فكري وقلبي لا يخصانني، فهما ساحة رحبة تلتقي فيها كل الاخبار، و يأتي اليها الاصدقاء و الاعداء ليتحدثوا و يرافعوا، و في اكثر الاحيان ضدي.

يا يسوعي، اجعل فيّ ملكك المطلق السامي و اطرد من قلبي اولئك الغرباء و الباعة، و الصيارفة الذين يحوّلون مقدسك الى سوق عامة. اعِد الى حرية ابناء الله التي جئت بها الى الارض. اجعلني غير خاضع لاحد في هذا العالم إلا لك و لكنيستك المقدسة ولا يكن للحياء البشري أي سلطان عليّ.

هب لي أَلاَّ ابالي بأمور الدنيا ولا أتأثر بالاستحسان او النقد و أَلاَّ يلهيني عنك تعدُّد واجباتي و علاقاتي الضرورية.

المقالة السابعة

بذل الذات في غمرة الاشغال

لا تمضي كل النفوس حياتها في دير محاط بسور يحميها ضد تأثير العالم سياج النذور الرهبانية الثلاثي، بل يعيش اكثرها في العالم فيما بين تيارات الاعمال، منهمكاً في نضال لا يتوقف لتحصيل خبزه اليومي. ان الشواغل الخارجية تسترعي انتباهها كله. و هذه الشواغل التي تفرضها الطاعة او ترسمها الحاجة او يختارها الذوق الشخصي لا تلبث ان تتكاثر و تتنوع حتى تفوق طاقة النفس. فتقاوم هذه بلا جدوى تلك العراقيل، ولا تتوصل الى التوفيق بين الحياة الروحية وهذا النشاط الخارجي المضطرب فالاعمال بدل ان تدع روح الصلاة تتغلغل فيها تخنق بالحري هذه الروح او ترهقها، و لا تلبث النفس ان تفقد اتزانها و تتعب و تعلن انها لم تخلق لحياة الصلاة.

و الى جانب الانهماك وحمى العمل تأتي المعاكسات الصادرة عن اشخاص و المصاعب الملازمة للحياة التي اخترناها وللوظائف التي اسندت الينا و هكذا تستنفذ الاهتمامات الخارجية نشاط النفس و تجفف القلب و تنفره نهائياً من الحياة الداخلية التأملية.

يا يسوع ! ان هذا الخطر، بصورة خاصة يخيفني، فأنا ارى كثيرين يصطدمون بهذه العقبة فيسقطون او يغرقون بطريقة يرثى لها. فهل تراك دعوتنا الى الصحراء و كثّرت لنا فيها المعجزات لتتركنا نموت فيها؟ وهل يمكن ان تتسبب الاعمال التي نقوم بها لإرضائك في هلاكنا؛ ايها الرب يسوع، لا تسمح بذلك بل علمنا كيف نعبر هذا البحر الاحمر الذي تهدّد امواجه بأن تحملنا.

ماذا تخافين ايتها النفوس المخلصة؟ اسمعي صوت المعلم، فالخطر كبير ولاشك ولكن لا للقلوب الطيعة.

ان الاعمال ليست هدفاً بل وسيلة اعطيت للنفس لتبرهن للّه عن محبتها. فيجب اذن ان نمارسها، و لكن باعتدال. فاذا خيرنا في اعمالنا، لا نأخذن الا التي لا تلهينا، أَو قلَّما تلهينا عن اللّه. يجب اذن استعمال فضيلة التمييز.

لكننا نجد بين المتدينين من لهم الحرية التامة في تنظيم وظائفهم و تحديد شواغلهم، و مع ذلك تتقاذفهم امواج اعمالهم المتزايدة دوماً فمن ترى يلزمهم بكل هذا؟ _ ما من احد. بل تحثهم جاذبية العمل و ميلهم الطبيعي إِلى النشاط كما أنهم يفتقرون الى اللازم لكبح جماحهم فيندفعون كالخيل الجامحة. فيا للمتهورين المساكين! ان الهاوية ليست بعيدة عنهم، وهي تنتظرهم لتبتلعهم.

من تراه يجهل امثال تلك السقطات الجديرة بالرثاء، بل امثال ذلك النوع من الجحود المتأتي عن الافراط في العمل. و عند هذا تُختصر في بادئ الامر الصلاة و التأمل و تمارين الحياة الروحية و من ثم تُلغى.

بيد ان الانسان العاقل يتذكر دوماً، ان هناك شيئاً واحداً ضرورياً، هو بذل الذات للّه. فالسيد ليس بحاجة الى خدماتنا متى قدمت بانهماك مفرط.

إِن ملأنا العالم بسطوع معارفنا وادهشنا الحكماء بعمق مباحثنا؛ و ان اثرنا اعجاب الشعوب و تقديرهم بخدماتنا الجليلة، مدفوعين الى كل هذا بعوامل محض بشرية، لا نؤدي للّه مجداً بقدر ما نؤدي بفعل محبة بسيط.

ان زهوَنا لعلى ضلال: فوجودنا على هذه الارض ليس ضرورياً، واللّه قادر ان يسوس الكون بدوننا. و ستتابع الكواكب بعد موتنا سيرها في رحاب الفضاء، وتواصل الممالك تتّبع مصيرها على هذه الارض؛ ستظل تقتتل للسيطرة على مسرح العالم، و سيبقى الخير و الشر جنباً الى جنب والصالحون يتقدسون و الاشرار يهلكون. فماذا نستطيع ان نغير في ذلك من تلقاء ذاتنا؟ ان مكانتنا ضئيلة على هذه الارض و تأثيرنا محدود جداً، ما لم نكن للّه جسداً و روحاً، ما لم نكن بين يديه ادوات لا حدّ لطواعيتها، ما لم نتخلّ عن ارادتنا الخاصة، ما لم نعمل الا بوحي العناية الالهية التي ترتضي ان تستخدمنا لبلوغ مقاصدها.

حينئذ يكون عملنا هادئاً لانه يكون معتدلاً، و مستمراً لانه حلو و خصيباً لانه الهي.

لكن النفس قلما يمكنها اختيار اعمالها، فغالباً ما تفرضها عليها الطاعة، كثيرة صعبة. و الله يسمح بان تفوق هذه الاعمال مقدرتها، والا تستطيع مع إِخلاصها ان تتممها كلها في الاوان المناسب. و مع ذلك فالطاعة هي التي تريدها. فما اكثر النفوس المسكينة التي وجدت ذاتها مرتكبة امام هذه المعضلة!

اجل! ان اعمالكِ تفرضها عليك الطاعة، والله يريد ان تنكبيّ بعناية على تتميمها. هو يريد الا تضيّعي لحظة في شواغل لم يأمر بها. فمتى فعلتِ هذا قمتِ بواجبك، والله لا يطلب منك لهفة و استعجالاً، بل بالعكس ينهاك عنهما. هو يريد فقط ان تعملي على حسب قواك بهدوء من غير ان ترهقي ذاتك او أَن تضطربي.

فاعملي اذن كل عمل على حدة و تصرفي كانه ليس لك عمل آخر لهذا النهار. اعملي بنشاط بلا كسل ولا ابطاء، ولكن لا تقلقي ذاتك بالرغبة في انهائه. و عندما تنهين او ل عمل ارفعي عينيك برهة نحو المعلم الالهي ثم ابدئي عملاً آخر. فالله يريد ان تبقي مشغولة ولا يريد ان تتممي ما يتجاوز الحد فان كان ثمة اشغال لا تستطيعين اتمامها مع ما تبذلين من عناية هادئة و انكباب رصين فأطمئن يلانك قد اتممت مشيئة الله اذ بذلت يومئذٍ كل ما في طاقتك و يسوع راضٍ عنك.

لكني اعرف ان البشر قد لا يحكمون على هذا النحو، و ان بعض الرؤساء القليلي الحكمة يتطلبون احياناً اكثر مما يطلب الله و يُظهرون استياءهم. و هذا اصعب موقف تستطيع ان توجد فيه نفس ورعة تريد ان ترضي الذين اقيموا رؤساء عليها، و ان لا تلحق ضرراً بحياتها الروحية.

ان الرؤساء الحكماء لا يسمحون ابداً بان يوجد مرؤوسوهم في مثل هذه الحيرة بسببهم ولا ينسون ان الحياة الداخلية التأملية للنفوس التي ائتمنوا عليها يجب ان تتقدم على رفاهية الدير و خير الآخرين الروحي. فالعمل ليس هدفاً و انما هو شاغل لا يطلبه يسوع الا بقدر ما يزاوَل باعتدال.

أما النفس فسلوكها بسيط. عليها ان تبذل كل ما في طاقتها من غير قلق او اهتمام. و ان كان عليها ان تتحمل لو ما او تخضع لتقريع بسبب عمل لم يكن عدم انتهائه ناتجاً عن تقصير منها، فهي تتقبل هذا الصليب الصغير كدليل على محبة خاصة من يسوع لها. فان السلام الداخلي و التسلط على الذات يساويان التضحية بتقدير البشر

و مودتهم. و هكذا تستفيد النفس من ناحيتين اذ تحتفظ بسلامها الداخلي في غمرة الاشغال كما تحتفظ به ابَّان المهانة. فتجدد في كلا الحالين بذل قلبها لله.

و من النفوس من يمكنه اختيار مشاغله، و منها من يعيش تحت الطاعة، و منها من تحدد اعمالهم ظروف معيشتهم أي حالتهم الاجتماعية. ان السعي وراء المعيشة اليومية و الاهتمام بالعيال والقضايا المهمة و الشواغل المتنوعة تستغرق اوقات اكثر اهل العالم و انتباههم. و مع ذلك تستطيع النفس المخلصة ان تنجو هنا ايضاً، من الخطر الذي يهدد حياتها الروحية.

عليها ان تذكر اقوال يسوع: " لم تهتمون للغد، ولم تتساءلون بقلق: ماذا نأكل او ماذا نشرب او ماذا نلبس؟ فهذا كله تطلبه الامم؛ اما انتم فأبوكم السماوي عالم بما تحتاجون اليه. فلا تهتموا ابداً. بل انظروا الى طيور السماء إنها لا تزرع ولا تحصد، و ابوكم السماوي يقوتها. اطلبوا اولاً ملكوت الله و بره وهذه كلها تزاد لكم". تلك هي حكمة الانجيل، هذا هو صوت يسوع العذب يطمئن النفس المستسلمة له.

فلا تتسرعي ابداً يا نفسي ولا تدعي الاعمال تشغلك مهما ظهرت لك ملحة و خطيرة. اجتهدي في ان تكوني معتدلة في تصرفاتك كلها. ولتكن حركاتك و مشيئتك و طريقتك في الكلام دليلاً على نفس تمتلك ذاتها. فمظهرك الخارجي يؤثر في داخلك فتصبحين دوماً هادئة و سيدة ذاتك.

ولو أعطي لك ان تسوسي مملكة فهذا الاهتمام ليس من شأنه ان يجعلك تفقدين راحة قلبك لان نفسك اثمن من ممالك الارض كلها. لقد رفض يسوع التاج الملكي الذي عرضه عليه اليهود اذ كان يحتقر هذه التقدمة التي لا قيمة لها؛ لكنه يبتهل اليك ان تجعليه ملكاً على قلبك. فاقيميه عليه سيداً واجعليه وكيلاً على خيراتك كلها ودعي له الاختمام بمصالحك كلها ثم احبيه قدر استطاعتك. فلن يُقال ان العروس شكت الجوع والعطش في قصر الملك عريسها.

الفصل الثالث

ممارسة بذل الذات ابان التجارب والمحن

المقالة الاولى

بذل الذات والتجربة الداخلية

ان يسوع بستاني خبير. يسهر على الاشجار المثمرة التي غرسها ابوه و يشذّبها في الاوان المناسب. و النفس تعرف انها موضوع اهتمامه الالهي فتكتفي بان تنمو و تغطيها الاوراق والازهار و الاثمار. انها لا تتساءل متى يشذبها المعلم و ينزع عنها الاغصان الميتة، بل تنتظر بصبر، لعلمها ان يسوع يسهر عليها و انه يرسل اليها صليبها العزيز في الوقت المناسب، انها لا تحدد شيئاً ولا تعين نوع العذاب الذي يرسله الرب اليها، فهذه جسارة و فضول؛ فهي تترك له ذلك لان كل ما يفعله جيد.

ان الصلبان التي يرسلها يسوع الى النفوس ليقودها في طريق الكمال عديدة و متنوعة و النفس لا تعرف ايها قد خصص لها، فتتقبلها كلها سلفاً. لذلك عندما يتراءى لها يسوع حاملاً الصليب تسرع الى مساعدته في حمله.

كيف نصف بالتفصيل المحن والتجارب التى يُنعم بها يسوع على النفوس؟ فهي لا متناهية في تنوّعها و مطابقة لحاجات كل نفس و منتقاه بحسب سمة الجمال الخاص التى يجب ان تزينها.

ان يسوع يُسر خاصة بتنويع التجربة الداخلية. فهناك في داخل النفس لا يلاحَظ عمله ولا يُراقب ولا يُعاكس الا قليلاً. هناك يستطيع ان يبتر ما هو زائد في صميم القلب و ينزع منه كل جذر غير نقي و يخرج منه كل عصارة غريبة.

و كثيراً ما يستخدم يسوع قلق الضمير و الشكوك في خلوص النية و في قيمة الاعمال الحسنة. فتتألم النفس الماً لا حد له مؤكدة لله محبتها و امانتها على الدوام.

و تبلغ المحنة اقصى درجة من الحدة عندما تقتنع النفس بانها عدوة الله، بأنها قد خانته و هجرته. و يظهر لها ان الله يتركها بدوره و انه يحول عنها وجهه و يسلمها الى اعدائها. و تتصور النفس حينئذ انها رجس في عينيه تعالي، و ان ازدراءه يلاحقها و ان غضبه يسحقها.

و تبلغ المحنة اقصى درجة من الحدة عندما تقتنع النفس بانها عدوة الله، بأنها قد خانته وهجرته. و يظهر لها ان الله يتركها بدوره و انه يحول عنها وجهه و يسلمها الى اعدائها. و تتصور النفس حينئذ انها رجس في عينيه تعالى، و ان ازدراءه يلاحقها و ان غضبه يسحقها.

و تشعر احياناً انها هالكة فتتوارد التجاديف على شفتيها و يتراكم البغض في قلبها و يستولى عليها اليأس شادّاً عليها الخناق.

و لكن ما الفائدة من الوصف؟ فالله قد اختص هذا الامر بذاته، انه يريد ان يكون حراً و ان يعمل وحده في داخل النفس. ولهذه الغاية يكبّل القوى و يعمي العقل و يخدّر الارادة ويذعر الحواس. و لا يستطيع أي مرشد روحي ان ينير نفساً يريد الله ان يبقيها في الظلمة، و لا يتمكن احد من تفسير ما يحوّطه الله بالاسرار، ولا من ادخال التعزية الى حيث يريد الله ان يبعدها.

أما واجب النفس المستسلمة لله فهو ان تجدد فعل بذل ذاتها في هذه الاوقات العصيبة. و الله يترك للنفس تلك القدرة السامية على ان تستسلم له بفعل ارادة . و هو يحرمها ولاشك عزاء فعلها و يخبئ عنها صلاحه لكنه يساعد دائماً على تتميمه لان في ذلك جوهر الحياة الروحية.

و متى قامت النفس بهذا الفعل، لا يتبقى عليها سوى ان تتألم و تنتظر و تصبر. ان كمالها كله قد تحقق في البرهة الحاضرة، والله يعمل فيها و ينقيها و يرميها في البوتقة مستعملاً على التوالي ، الحديد و النار. و يتطاير الشرر ولا شك تحت ضربات مطرقته الالهية المتتابعة لكن الحديد يبدأ في اتخاذ شكل ما. ولا يلزم الا قليل من الصبر حتى يتمّ الله تحفة جديدة. حينئذ تتوقف المحنة فجأة لان الله، بعد ان يبرد غليل النفس و ينعشها يعيد اليها قواها و يمزق الغشاء الذي كان يحجب بصرها.

انك تَصلب يا يسوع بطريقة عجيبة. فلمَ لا افهم انه ينبغي لي ان اتركك تتمم فيّ عملك في هذه الاوقات الاليمة، من غير تَشكٍ ولا تذمر، و ان اجيب عند كل شدة جديدة و كل محنة اشد ايلاماً، بفعل خضوع اكثر حباً.

المقالة الثانية

يجب ان تتعالى النفس النقية عن المحنة عينها

ان المحنة الداخلية مفيدة، و يسوع يُشرك فيها كثيراً من النفوس. لكنه لا ينعم بها عليها كلها، ولا لزوم ان يحصل ذلك. فليس من شيء لا يمكن الاستغناء عنه، حتى المحنة الداخلية ذاتها. وهناك نفوس تقلق لعدم وجود اسباب تقلقها و تضطرب من الهدوء الدائم الذي يسود فيها و تتألم من الفرح غير المنقطع الذي يغمر قلبها. انها تكاد تشكو الله بانه لا يحبها ولا يريد ان يرسل لها صليبه الحبيب.

اما القلب البسيط فلا تراوده مثل هذه المخاوف. و هو يحب الصليب و متى ظهر له يتقبله كاخ عزيز و يضمه الى صدره كباقة زهر بعث بها يسوع، لكنه يعرف ان يرتفع فوق الالم نفسه. فالالم ليس هدفاً و انما هو مجرّد وسيلة محبوبة ولا ريب، و النفس لا تتعلق به اكثر من تعلقها بتسليات هذا العالم و افراحه. فدورها هي، ان تبقى حرة و تنطلق و تطير في اجواء المحبة. وهي لا تحتاج من اجل هذا الا الى اجنحة يعطيها اياها يسوع.

قلباً نقياً اخلق فيّ، ايها المعلم الالهي! فالقلب النقي لا يعرف قيوداً ولا يصادف عقبات البتة في ارتفاعه نحو الله. انه ليس اسيراً لاية خليقة ولا هو تحت رحمة أي حادث، لا يقيده أي شوق ولا يأسره سوى النزوع الى ان يكون ليسوع. لقد حطم آخر رباط ما برح يقيد بعض النفوس الا و هو التعلق بطرق الكمال، و خصوصاً بالطريقة الرئيسية: الالم.

و من الآن فصاعداً لم يعد أي شيء يهم النفس مادامت تحب يسوع؛ كل شيء يحسن في عينيها مادامت تستسلم له. انها لا تطلب العذاب الا اذا اوحي اليها معلمها بذلك. فهي تعلم جيداً ان يسوع يحبها كثيراً، لذا لن

يستثنيها من العذاب ان كان ذلك ضرورياً لها. و هتي تبتهل اليه فقط ان يعطيها القوة لتتحمله، و تشكرُ له عطيته.

دورها هي، ان تقنع بما تقدمه لها اللحظة الحاضرة من هيّن و صعب، من حلو و مر. و تظهر حياتها تافهة لها وللآخرين ايضاً؛ لكن هذه الحياة هي في الواقع اسمى ما يمكن على هذه الارض. و كثيراً ما يجنبها يسوع الالم، فقد جعل الصليب لتحطيم القيود و تنقية القلب. و اما هي فما من قيود توثقها، و قلبها بسيط ومستقيم لا تجد فيه نار الالم ما تلتهمه، بل هو يتحول الى جمرة من الحب الالهي هادئة لذيذة. و تلج هذه الشعلة اللطيفة الى صميم النفس و تنقيها يوما بعد يوم من النقائص و الهفوات الملازمة للطبيعة البشرية، و تذبيها على مهل كمُحرقة زكية الرائحة.

المقالة الثالثة

يجب على النفس المستسلمة لله ان تتوقع الاضطهاد

"ان جميع الذين يريدون ان يحيوا بالتقوى في المسيح يسوع يضطهدون" ذلك ما يقوله القديس بولس بوحي الروح القدس.

ان النفس الصالحة بالطبع تتصور في بادئ الامر ان كل ما في الحياة يبتسم لها، فتستسلم بنية سليمة لما يعجبها و يستهويها و تحسب ان الناس اجمعين مستقيمون و بسطاء مثلها. لكن هذا الوهم لا يدوم و ااسفاه الا قليلاً اذ لا تلبث ان تتبين ان المحبة التي تُعامل بها والمودة التي تظهر لها ليست صافية، بل غالباً ما تكون الا طلاء و مظهراً بل ستاراً تتخفى وراءه انانية بشعة.

وكلما سلكت مع الناس اكتشفت في معظمهم برودة قلب و ضيق مشاعر و صغر نفس. و هي تلاحظ هذه النقائص حتى في اولئك الذين يظهرون لها اتقياء و مثقفين، كما انها بعد طول الاختبارات الشخصية، لا تلبث ان تلاحظ هذه الامور في ذاتها.

إنها ليست في ذلك على ضلال، لان كل انسان بطبيعته محدود من كل النواحي: محدود في ذكائه و فطنته، محدود في تفكيره و احكامه.

ان القلب البشري مفعم بالانانية، و الفكر كذلك طافح بالطموح. و ااسفاه ان صغر النفس و ضيق النظر و التصلب في الرأي يشوه افضل النفوس . ولا ريب اننا لا نكون في غالب الاحيان مسؤولين عن هذه العيوب، لكنها في الواقع حقيقية وكثيراً ما توجد الصعوبات في توطيد علاقات متواصلة بين الناس، حتى الروحيين منهم.

ونحن نعرف ان النيات حسنة لدى الطرفين لكن اوجه النظر و الامزجة تختلف؛ الارادة جيدة عند هؤلاء واولئك ولكن تقدير الامور يتنوع و كثيراً ما يتناقض.

ولو أن الصعوبة تنحصر في هذا التصادم البسيط او في اختلاف المزاج و تباين الرأي، لكانت محتملة اذ لا يلزم للتغلب عليها الا فضيلة عادية. لكن هذا التباين الخفي في العواطف والاحكام ينفجر في تنافر سافر و ذم صريح، و في مقاومة او اضطهاد مكشوف. فترى النفس الحسنة النية انها اصبحت مشتبهاً بها و معارَضة و مقاوَمة في احسن مشاريعها. و كذلك النفس البسيطة التي تعتقد انها تتجه رأساً نحو الله بارتفاع القلب، ترى ذاتها موضوع شبهة و مراقبة و انتقاد: اذ لا يَحتمل الناس ان تغايرهم في السلوك و تبتعد عن مجتمعهم، فارضة على ذاتها ساعات خلوة صلاة و ممتنعة عن تسليات وعلاقات تُحسب ضرورية.

و النفس التي تحركها غيرة شديدة تلقى المقاومة في مقاصدها، فيهملها افضل اصدقائها و ينتقدها اجدر القضاة ويخونها اصفى اصفيائها: لانهم يجدون تلك الغيرة عديمة التنظيم، وذاك النشاط مفرطاً، وهذا الاجتهاد والاهتمام جانحاً الى الغلو. فينعتون ثباتها بالعناد وتواضعها بالرياء وصلابتها بالكبرياء و مثابرتها بالطموح المتستر.

ولا يكتفون بالاحكام والاقوال. بل اذا ثابرت النفس على سلوكها هذا، فان الاضطهاد يبدأ تارةً متستراً و طوراً سافراً و تستعمل كل الوسائل للنيل من النفس و شلّها: كالسخرية و الوشاية، والافتراء احياناً. و من يعرف اكثر من النفس التي كانت ضحية ذلك، كم من الوسائل يستطيع الخبث البشري ان يخترع، و كم من الاسهم يستطيع اطلاقها، و كم من الفخاخ يستطيع نصبها، ليسيء الى خصم مزعوم.

لكن الاضطهاد ليس له دوما هذا الطابع المتطرف بل غالباً ما يبقى خفياً، كما ان هناك نفوساً لا يستطيع النيل منها إما لان وضعها الاجتماعي و أفضالها و حسن سلوكها تُجرد العدو من سلاحه و تشله، و إما لان حياتها الخفية المنعزلة تبعدها عن ضرباته. و مع ذلك يبقى اكيداً ان النفوس الروحانية بوجه عام يجب عليها ان تحسب، عاجلاً او آجلاً، حساباً لمحنة الاضطهاد بشكل من الاشكال، و ان تكون مستعدة لمواجهتها بما يؤول لخيرها.

المقالة الرابعة

تصرّف النفس ابان الاضطهاد

يجب ان لا تدهش النفس عندما تلاقي اضطهاداً حتى اذا اتاها من اهل الخير، بل يجب ان تقتنع بأن هذا الشقاء هو نتيجة حتمية لضيق أفق الفكر البشري وللأنانية الطبيعية في قلب الانسان.

لو كان لكل الناس افكار واسعة وكبيرة لكانوا كلهم متسامحين، يحترمون آراء الغير وسلوكه ولا يتسرعون في ادانة نيات الاخرين و اعمالهم. لا أحد يتساهل مثل الله عن انحرافات الفكر و نقائص الطبع و تقلبات المزاج، بل عن الخطايا الاخلاقية لان احكام الله لا متناهية في اتساعها، و هو يكتفي من خلائقه بالارادة الحسنة وبموجبها يكوّن حكمه.

اما الانسان الذي هو محدود من كل وجه، فلا يتصرف على هذا النحو. انه ينظر الى المظاهر ويحكم من الخارج و يتبع تأثراته الشخصية فيما يحب و يكره. انه يعترض على كل ما لا يوافق افكاره الشخصية و طريقته الخاصة في العمل و يود اصلاح الامور على هواه.

يجب ان تقتنع النفس اقتناعاً راسخاً بهذه الحقيقة أنها لن تجد احداً تستطيع ان تعتمد عليه بلا تحفظ في موافقتها و مساندتها. ان اوفى الاصدقاء واجدر المرشدين بالاعتبار، و ابلغ المسرين مودة، واوفر الرؤساء عطفاً و رفقاً قد لا يلبون نداءنا في الوقت الذي نعتمد فيه على نصيحتهم وسلطتهم فمادامت النفس غير مقتنعة اقتناعاً متأصلاً بأن ليس لها ان تطلب عوناً من هذه الارض، فهي عُرضة في كل حين للصدمات و خيبة الامل فعلى الانسان ان يختار بين اعتماده على الله و اعتماده على الناس. ان طبيعة الانسان ضعيفة في تكوينها بحيث لا يمكن الاعتماد عليها بثقة تامة، والله هو الذي شاء ان تكون الامور على هذا النحو لكي لا يكون للنفس، في آخر الامر، سند سواه، ولا تستريح الا فيه وحده و من ثم يجب على النفس المقتنعة تماماً بهذه الحقيقة ان لا تخاف الاضطهاد على أي شكل حصل.

فمتى بذل المرء ذاته نهائياً للّه لا يعود يابه الاعتبار البشر و انتقاداتهم و عنفهم، و سخريتهم لا تستطيع من بعد ان تزحزحه لأنه لم يتخل عن كل شيء في سبيل نيل استحسانهم او كسب تقديرهم.

بماذا يستطيع العالم كله ان يؤذي النفس المستسلمة للّه؟ فالنفس ليست بحاجة الى العالم و الى رضاه. وهي تعلم ان رأي الناس لا قيمة له امام اللّه. و لو تحالف الكون كله ضدها لما أمكنه ان يسلبها استحقاق عمل واحد. العالم ليس قوياً الا ضد من يخافه، و من يجابه تهديداته و صرخاته يجده عاجزاً.

يجب إذن ان تردد النفس دائماً في اعماق قلبها: سيأتي زمن اجد فيه ذاتي و قد تلى عني جميع الناس و حُرمتُ النصح و التشجيع، و اصبحت موضوع شبهة من قبل رؤسائي و مرذولاً من اترابي. و لكني لن اخاف هذه الحال لانني لست بحاجة الا الى يسوع. سأضحي سلفاً بتقدير و مودة و ثقة جميع اعزائي، و سأسهر فقط على ان لا انحرف ابداً عن الطاعة. و كلما رذلتني الخلائق التصقت بيسوع فهو وحده يعرف استقامة نواياي و سلامة قلبي.

ومتى تجدد هذا الفكر باستمرار وقت الصلاة اوجد في النفس حرية قلب كبيرة و استقلالاً مقدساً عن كل تقدير بشري. فاذا جاء الاضطهاد و التعيير وهجران الاصدقاء وعدم ثقة الرؤساء فالنفس لا تتأثر لانها تجاوزت الاجواء التي تستطيع فيها الغيوم ان تلبد وجه السماء. انها تعيش في اجواء صافية تسطع فيها الشمس دائماً. فيقف التناقض عاجزاً و يصبح الاضطهاد اعزلاً امام هذا الصفاء وهذا الهدوء الذي لا يشوش، وهذا الثبات في الطباع الذي لا يتقلب.

واللّه من جهته لا يترك النفس بلا عون. فكلما استسلمت له ازدادت حمايته لها. وكلما اهملت مصالحها الخاصة وتبريرها الذاتي عظمت عنايته بها و بتقدّمها الروحي. وهو يستخدم لتحقيق مآربه اعداءه انفسهم، فيجعل من حسدهم واحاديثهم الخبيثة وعنفهم وحيلهم اداة لاظهار براءة النفس المضطهدة وصوابية موقفها.

ما اعظم اسرارك يارب! انه يُنتقم للمرء عن كل اهانة وكل ظلم لحق به، اذ ما على النفس إلا أن تستسلم للّه و تضع بين يديه كل همومها و مصالحها ولا تحتفظ في قلبها الا بمحبته لتشعر السماء بأسرها انها ملزمة تجاهها فتبادر الى حمايتها.

إذن فسلوكي في المعاكسات و الاضطهادات بسيط جداً يا يسوع! ليس عليّ سوى ان ارتمي بين ذراعيك، أن اعهد اليك بحمايتي، ان احبك. السماء والارض تزولان و لا تهلك النفس التي لجأت اليك.

هكذا مهمة النفس الروحانية لا تتغيّر ابداً اذ ليس لها ابان الازدهار و النجاح و التعزيات والنور وموافقة البشر سوى فعل واحد هو بذل الذات التام ليسوع. كذلك ليس لها في غمرة الظلمات والشقاء و الانتقادات و الشدائد سو فعل واحد ايضاً: ان تبذل ذاتها للّه بفعل محبة مضطرم. ذلك هو كامل سرها ومنتهى حكمتها.

المقالة الخامسة

بذل الذات ابان المرض

ان يسوع يمتحن النفوس و ينقيها بطرق كثيرة مختلفة. فالمصاعب و الاضطهادات و الجفاف و التشكك و الاحزان الداخلية وعرقلة الاعمال و خيبة الامل وفقدان الثروة، هذه كلها وسائل بين يديه تعالى لقيادة النفوس الى الكمال. قد يفهم بعض هذه النفوس محبّة الله هذه فتدعه يشذبها حسب ما يشتهي، وقد يدهش البعض الآخر و يتذمر و ينسحب من تأثير العمل الالهي.

وهكذا يتم تمييز النفوس الباسلة من النفوس العادية المبتذلة. فالمحنة واحدة و الفرصة السانحة واحدة، و الاستعداد الداخلي وحده يختلف. هناك نفوس تملك استعداداً حسناً لتكون لله فتستسلم بهدوء لعمله متقبلة ما يقدمه لها من حلو و مرّ. وهناك نفوس أخرى تنقصها هذه الطاعة المطلقة و الشاملة فتبذل ذاتها بتحفظ و تتراجع حالما تعاكس المشيئة الالهية رغائبها أو تكبح مزاجها.

بعضها يثبت ناظريه في الله، العلة الاولى لكل شيء و منظم الاحداث و مقدس النفوس الاسمى؛ وبعضها الآخر يتوقف عند العلل الثانية ويجعل الخلائق مسؤولة عن المصائب التي تلم به.

لا يظهر الفرق بين النفوس الروحانية و النفوس الاخرى باكثر جلاء مما يظهر في العجز والمرض. فالمرض محك القداسة و بعض النفوس التي نحسبها راسخة في الفضيلة ونموذج يحتذى به في الدقة والنظام كثيراً ما تتهامل و تتراخى إبان العجز و المرض كما ان نفوساً قوية كالصخر كانت تُظن ذات مبادئ لا تتزعزع أصبحت يوم المرض فريسة اهوائها و ألعوبة مزاجها. كذلك رأينا نفوساً شجاعة صقلتها المحنة و قسَّاها الاحتكاك بالمصاعب تتراخى فجأة و تلين كالطين بضغط الالم الجسدي و الانزعاجات الناجمة عنه.

مساكين هؤلاء المرضى! عجزهم مزدوج. انهم يبدون رغائب مدهشة و يطلبون اطباء و ادوية و عناية متواصلة وعوناً لا ينقطع. يتذمرون عندما ينقصهم شيء او عندما يمنع عنهم بحق، و يظهرون نفاد صبرهم عندما تطول

مدة المرض. أليست لهم الوف الاعمال الهامة التي لا بدّ من انجازها و ألوف من المشاغل الملحة التي لا بدّ من قضائها؟ يقولون في انفسهم: " هذا المرض مصادفة سيئة. لو أتى في أي وقت آخر لقبلته بكل ترحاب. أما وقد شرعت في تطبيق هذا المشروع فإنه غير مناسب أبداً".

هذه النفوس لا ينفذ صبرها فحسب بل تقلق قائلة: " من يدري كيف ينتهي هذا المرض و أية مضاعفات قد تحدث واية آثار قد يتركها في جسمي؟" و اذ تقلقها هذه المخاوف تكاد لا تجد الرغبة والوقت الكافيين للقيام بتمارينها الروحية فتعجز كلياً عن الاتحاد بالله بفعل استسلام تام.

اما النفس المستسلمة للارادة الالهية استسلاماً كلياً فتفعل عكس ذلك. لا تخاف المرض ولا تسعى لاتقائه بحيطة مفرطة بل تراعي قواعد الوقاية العادية و تتكل في ما تبقى على العناية الالهية. و متى اصابها المرض تقدم حياتها ذبيحة لله، طالبة اليه ان يتصرف بجسدها و بكل اعضائها لمجده الاعظم. ثم تبقى ساكنة و تأخذ العقاقير الموصى بها و تتبع تعليمات الاطباء و تخضع لما يطلبه المعتنون بها. ولا تطلب شيئاً فوق هذا اذ قد بلغت كمالها في البرهة الحاضرة. إنها لا تتوق الى الحياة ولا الى الموت و لا تسأل بقلق عن رأي الاطباء وعن تقدم المرض و عن فاعلية الادوية، و خصوصاً لا تظهر أي رغبة في أن تنال عناية اكمل أو أن يعاينها أطباء اوفر اختباراً.

ان استعدادها الداخلي الذي لا يتغير هو اكمل تسليم لارادة الله، ليس فقط في ما يختص بالمرض نفسه بل في ما يختص بالظروف التي يحدث فيها المرض و النتائج التي يحدثها. فالله الذي يريد مرضها يريد ايضاً ان تعطل اهتماماتها و توقف اعمالها و تُهدم مشاريعها و حتى ثروتها ايضاً. وهو يريد لها الارتباك والضجر و النفقات التي يجرها المرض على اسرتها او على جماعتها.

هكذا تجد النفس البسيطة سلوكها محدداً في كل الافتراضات الممكنة. تكتفي بان تكون كما يريد الله لها، ولا تهتم بشفائها ولا بالعودة الى عملها ولا بان تؤّمن لنفسها الراحة ولا بان تخفف عن الآخرين الحمل الذي تفرضه عليهم عن غير قصد.

همها الأوحد ان تحب الاله الذي استسلمت له و مهمة الله ان يدبر كل شيء و ان يعطيها إِماَّ الصحة واما المرض و اما الحياة و إِما الموت.

المقالة السادسة

بذل الذات وقت الموت

النفس البسيطة تكتفي بمحبة يسوع و تتميم مشيئته الالهية في البرهة الحاضرة. هكذا تنقضي حياتها الرتيبة و لكنها حياة سعيدة. فهي لا تشقى لان الآلام تتحول عندها الى افراح؛ ولا تهتم بشيء لان يسوع يفكر بكل شيء تحتاجه ولا تخاف من شيء لان كل شيء يأتيها عن يد يسوع الذي تحبه و حده.

هكذا تعيش النفس غائصة في الله في اغوار لا تدرك تستطيع ريح العاصفة ان تعبر بسطحها، لكنها لا تستطيع تعكير قرارها الهادئ الصافي.

ما اشهى مثل هذه الحياة، يا يسوع! فضلاً عن انها مقدمة نهاية اسعد.

ماذا تهمها الحياة؟ ماذا يهمها العالم؟ فمنذ ان بذلت ذاتها لله، وهي كلها له، لم تفكر النفس قط ان تنصب خيمتها على ذاك الطريق المؤدّي الى الابدية. كل ما تفعله هو ان تتوقف برهة على حافة الطريق لتسترجع انفاسها وتقيس بنظرها المسافة التي قطعتها. إِنها لا تتوق الا الى الهدف و تعجّل خطاها نحو الموت لان الموت عندها بدء الحياة الحقّة.

ان النفس المسيحية الكبيرة تتهيأ بعناية لهذا العمل الاخير الذي هو اهم اعمال الحياة إِطلاقاً. هي تجرب ان تموت في كل برهة، وفي كل لحظة تنكر ذاتها بفعل تقدمة ارادي، وتضحي لله بكيانها كله و بكل ما هو لديها و بكل ما يمكن ان تحصل عليه يوماً. تضحي له بنفسها ليقدسها و يجعلها متحدة به و تضحي له بجسدها

ليحفظه او يفنيه بحسب تدبيره. و تضحي له بحياتها ليعود فيأخذها في الوقت الذي يختاره هو وفي الظروف التي يحددها هو. كل برهة من حياتها موت مقبول مسبقاً. عيشة المرء على هذا النحو موت بلا انقطاع و متى جاء الله اخيراً ليقول: " يجب ان تموتي"، فبمَ يمكن ان تجيبه النفس عروسه بغير ما يلي: " ايها المعلم الصالح انني لا افعل شيئاً آخر منذ سنين".

اجل ايتها النفس المسلمة ليسوع، حياتك موت دائم وتضحية لا تنقطع بذاتك كلها و قداس دائم. وهذا القداس ينتهي على فراش موتك. والضحية وكذلك الكاهن المضحي هما انت ذاتك، وقد اتحدث بيسوع راسك فارتضي بذبحك، اذ انه لشرف لك ان تضمّي تضحيتك الى تضحية يسوع. و من موتك البطئ الشاق تنبع الحياة لك و للآخرين. انك تفتدين العالم مع يسوع و معه تكفرين عن خطايا البشر و معه تقدسين النفوس.

وهكذا، سوف يأتي يوم، و ربما كان قريباً، تموتين فيه.

مالك ترتعشين يا نفسي لهذه الفكرة، سيأتي يوم تقولين فيه: " سأكون بين ذراعيك بعد قليل يا يسوع، لقد انتظرت طويلاً هذه البرهة اللذيذة و ما هو الا قليل من الوقت حتى ينهار الحائط الذي يفصلني عنك فارتمي على قدميك و تضمني الى قلبك الالهي. لقد دام طويلاً زمن الغربة يا يسوع، فاضطرت النفس عروسك ان تنتظر طويلاً و ان تكابد كثيراً من المعاكسات و تتحمل كثيراً من السخريات ولكن ها هي قد أُفتقدت و كوفئت". _ لا لم يكن عريسها نائماً: بل كان ساهراً عليها يحافظ بغيرة على جمالها و براءتها و نقائها. و ها هو قد اتى يوم الاعراس الخالدة. ان السماء في عيد و القديسون يتهيأون ليدخلوا العروس الى ارحاب الملكوت السماوي. و ها هي الام الالهية و يسوع ذاته قد اتيا للقاء النفس السعيدة.

انها تترك هذه الدار الكئيبة غير آسفة فهي لم تحس فيها يوماً انها في مكانها و طالما راودها الشوق الى السماء. كثيراً ما طعنت قلبها الاهانات التي وجهت الى يسوع في ارض الخطيئة هذه. كثيراً ما سممت خياناتها الشخصية افراحها. وفوق هذا فهناك خطر الاساءة الى الله و خسرانه مدى الابدية، وعدم التأكد من ان تكون قد ارضته كما يجب.

لكن لقد انتهى كل هذا ومضى الشتاء، و انقضى زمن الثلوج و الصقيع وها هوذا الربيع مقبل و العصافير شرعت في ارسال تغاريدها. و يسوع يقبل ليقول لعروسه الامينة " هلمي اليّ من دار غربتك ايتها النفس حبيبتي. دعي هذه الناحية من الارض بلاد الظلمات و الشك، بلاد الحزن و العمل الشاق، وتعالي بقربي فاكللك بالمجد".

وداعاً يا ارض الغربة فقد طالما بللتك دموعي. وداعا يا اصدقائي المخلصين، يا اخوتي و اخواتي الاحباء الذين سندوني بامثالهم و شجعوني باقوالهم. وداعاً يا اعدائي و مضطهديّ الذين كانوا لي ادوات غير واعية للمراحم الالهية. وداعاً يا سجن جسدي الذي تنهار جدرانه اخيراً، انني اغادركم غير آسفة و اذهب الى النور. اذهب الى المحبة، الى الحياة. أذهب الى يسوع.

ايتها العذراء المباركة، باب السماء، انفتحي بسعة عندما يقف ولدك على عتبة الابدية. ايتها الام الحنون تقبليني حينئذ بحنوّ وقوديني الى يسوع.

القسم الثالث

نتائج بذل الذات

الفصل الاول

حياة محبة

المقالة الاولى

محبة متبادلة بين يسوع و النفس

متى استسلمت النفس اعطى يسوع ذاته بدوره. ذلك هو المبدأ الذي يسوس كل صداقة، و ليس صديقاً مثل يسوع.

وعطاء المعلم الالهي هذا فائق للطبيعة كعطاء النفس و اكثر منه ايضاً. انه يفوق عادة ادراك الحواس، وليس للعقل الا ان يستشفه فيما يكون الايمان موقناً به، كما ان القلب النقي كثيراً ما يختبره في الصميم و يتمتع به تمتعاً فائق الوصف بفعل مبادرة رقيقة من يسوع. بيد ان هذا التمتع ليس في الواقع عطاء يسوع، ولا هو يدل على قدره، بل انما هو اريج العطر السماوي الذي يحيط بقوى النفس و يتغلغل فيها.

و كما ان القلب يبذل ذاته بكامله، كذلك لا يترفع الله عن بذل ذاته بكامله، فيأتي اقانيم الثالوث الاقدس الثلاثة و يسكنون في النفس و يفيضون فيها عطية النعمة المقدسة التي ترفعها الى مستوى الله. وهذه النعمة تجعلها ابنة بالتبني للاب، و اختاً ليسوع و عروساً للروح القدس، و تشركها في الطبيعة الالهية و تجعلها وارثة للسعادة و لملكوت الله.

ان فعلاً واحداً تبذل به النفس ذاتها حقا يكون مدعاة لهذا السخاء العظيم من قبل الله. و كل فعل جديد مهما كان سريعاً و ضعيفاً تتبعه افاضة جديدة للالوهية في النفس المؤمنة. وكلما اجتهدت هذه في بذل ذاتها ارتضى يوسع بان تستحوذ عليه، فتحصل مباراة و معركة محبة يكسبها يسوع دائماً بسخائه لانه هو الغني الوفي الاسمى. وهو يدفع النفس من جهة ثانية الى بذل ذاتها. فيجرح قلبها عندما تتراخى، بسهم محبة يجعلها تنتفض، ويلقي عليها يسوع عندما تحس ببرودة حماستها، شرارة من لهبه الالهي تجعلها تشتعل.

تبارك اسمك يا يسوع! كم من السبل تهيء لنا حتى نحتفظ بشعلة محبتنا. فتارة تحرك قلبنا تملأه غبطة فنتصور ان هذا مكافأة لامانتنا ولكن غالباً ما يكون هذا وسيلة لابعاد خطر عنا او لتدارك سقطة او لتوحي الينا النفور من الاشياء الارضية.

واحياناً توقف عملك، فيظهر ان تبارك الالهي يتوقف فجأة في عروقنا. فتحزن النفس و تقلق لانها تظن انك تبتعد عنها و تهرب منها لكنك لا تهرب بل تغور بزيادة في اعماق النفس و تدعوها الى جمح الحواس و الدخول في صميم كيانها، وتدخلها الى الخدر لتصفي حبها و تنقيه من كل شائبة. و عندئذ تستطيع يا يسوع ان تزداد بذلاً لذاتك وترضي حاجتك الى العطاء. فانك انما تريد قلوباً فارغة من ذاتها لتملأها محبة. انك النبع الذي لا ينضب والكنز الخفي الذي لا يثمن.

ان الله هو الصلاح و طبيعته تدفعه الى ان يبذل ذاته. هو المحبة وقلبه يدفعه الى اضرام النار فيها. لقد اتى ليلقي النار على الارض فهل يريد غير اضطرامها.

ايتها النفس المستسلمة! لن يكون بعد بينك و بين يسوع الا فعل واحد هو بذل ذاتك. وفعل الحب هذا يسلمك اليه و يُسلمه اليك، فانسي كل شيء آخر على الارض و انهلي المحبة جرعات طويلة و اشبعي من الهك فشفتاك ملتصقتان بجنبه الالهي تستقين منه الحياة و تسكرين بالمحبة.

آه ما اسعدك يا بنت الملك تدللين على الركبتين لا تلتفتين بعد الى جهة الارض فأنت نبيلة جداً ورفيعة وغنية. انك تجلسين على مائدة ملك الملوك و تتنزهين في ممتلكاته التي اضحت ملكاً لك.

المقالة الثانية

اللقاء العذب بين يسوع و النفس في القربان المقدس

ان الثالوث الاقدس يعطي ذاته للنفس المُحبة، ومعه تأتي كل الكنوز و تسكن فيها. لكن هذا العطاء روحي يفوق الحواس جداً، و الانسان، و أأسفاه! يعيش كثيراً من المحسوسات وقد وجد يسوع وسيلة ليتجنب هذه العقبة بل ليزداد بذلاً لذاته. وهذه الوسيلة الفائقة الوصف هي سر الافخارستيا. لابد ان يكون لمعلمنا قلب حنون جداً عندما افتكر في الافخارستيا. ما اعظم ما كان ارتعاشه عندما فكر في النسيان المخجل الفاضح الذي قد يلحق به في بيوت القربان، وما اعظم ما كان انتفاضه فرحاً، مسبقاً، لدى رؤيته النفوس المزمع ان يسعدها حبه الافخارستي حتى انقضاء الدهور.

يا يسوع ما عسانا ان نكون بدونك، بدون حضورك الحقيقي؟ كم تكون حياتنا عندئذ كئيبة وفارغة! اين كنا نستريح في ساعات تعبنا! اين كنا نجد التعزية في اوقات حزننا والى اين كنا نتجه بدون القربان المقدس، عندما تعذبنا الكآبةِ السوداء والم الحنين الى الوطن البعيد؟

تبارك اسمك كل حين لانك اعطيتنا ذاتك بهذه الطريقة التي تفوق الوصف، و نكاد نقول ايضاً بطريقة بشرية قريبة المنال لقلبنا. وهكذا فإنك تشترك معنا في كل احزاننا وكل افراحنا. و في كل حين تتوق نفوسنا لتنسكب في قلبك. و اما انت فتأتي في كل صباح لتسكن فينا و تتجدد بصورة سرية بطبيعتنا مازجاً جسدك المقدس بطيننا و ساكباً دمك الكريم في عروقنا. يا له من اتحاد عجيب مثمر، به قلبك ينقي قلبنا و يؤلهه.

ايها الرب الحاضر في القربان المقدس! ما اوفر التعزيات التي تفيضها في النفوس. و ما اعظم المسرات التي تُغدقها على بني البشر لتكافئهم و تقويهم و تحفظهم. و ما اكثر البطولات التي تثيرها بلا انقطاع فيهم.

ايها المسيح الحقيقي العائش في العالم، المعرض للسخرية و الاضطهاد، بادر الى اقتبال الهك في القربان المقدس، فتتقوى و تحدق بالهازئين و تتحدى التنغيص والمعاكسات لتوسع مملكة مسيحك المحبوب.

و انت يا راهبة المحبة الساهرة دوماً عند اسرة المرضى تعاينين الجروح الكريهة والقروح البشعة والامراض المنفرة، الا اقتربي اولاً من يسوعك و تقبليه بشوق مقدس، ومن ثم، واصلي قوية جذلة، حياتك الرائعة في التفاني حباً بمعلمك الذي تحملينه في قلبك.

وانت ايها الكاهن الغيور، الرسول الجسور، تذكر في ابان اتعابك الرسولية بعيداً عن الذين تحبهم و قد تركتهم، في عزلتك بين اللامبالين وغير المؤمنين في هذا العالم، وسط المتاعب و الصعوبات و المقاومات من كل نوع، تذكر ان يسوع، في كل صباح عند دعوتك له، ينزل على يديك المقدستين ليعطي ذاته بواسطتك للنفوس العطشى اليه... عند ذلك تتمنطق بالقوة والشجاعة ولا ينالك تعب في جهادك.

وانت ايتها النفس العزيزة اياً كنت، مجهولة ومختفية عن عيون الناس، المنكبة على عمل شاق و متعب، ارفعي عينيك الى القربان المقدس وليكن ملجأك ابان الحزن، فيسوع حاضر هناك من اجلك. عندما انشا هذا السر ميزتك عينه الالهية بين سائر النفوس و تأثر قلبه لمنظر احزانك. فتقدمي اليه الان و انت امامه، غير هيابة، لان من حقك ان تنالي قوة و تعزية ويسوع يعرفك ويحبك.

يا صديق نفوسنا الالهي! اننا نعبدك باحترام ونحبك بحرارة، ننحني امامك باجلال ونعانقك برقة وحنان، نجثو عند قدميك بتواضع عند نظرنا عظمتك وحقارتنا ونلقي جبهتنا بثقة على قلبك الاقدس لانك صديق نفوسنا واخونا الحبيب. لقد اعطيناك كل شيء يا يسوع و اننا ومقابل ذلك نمتلك بكليتك.

المقالة الثالثة

الخدام الامناء

في بذل الذات درجات و كذلك في عطاء يسوع. فبين القلوب المكرسة له و التي لا تحصى هناك خدام امناء و اصدقاء سريون و ابناء مستترون.

تلك مراحل ثلاث تقابل درجات الارتقاء الى الله و تؤلف سلماً في الالفة التي تستطيع ان ترتقي بها كل النفوس، والتي يدعوها يسوع لتسلقها. انه يعطي ذاته للنفس لدى اول محاولة منها لتكون له و ذلك كما يعطي السيد الصالح ذاته لخدام البيت الامناء.

ان فكرة الخادم الامين لمعلمه اخذة في الضعف في مجتمعنا وهي تكاد تنحصر في بعض العائلات العريقة في مسيحيتها.

الخادم الأمين ينفذ الاوامر المعطاة بدقة و محبة. يحب معلمه ويفتخر في خدمته. همه الاساسي ليس الاجرة لانه يعرف انه لن ينقصه شيء. وهو يحس بأنه عضو في الاسرة واهل البيت يحوطونه بمودة ممزوجة بالاحترام.

الخادم الأمين كنز ثمين وسيده يدرك ذلك ويعهد اليه باعز مصالحه. هو يعرف ان امواله في امان بين يديه، بل يحتمل الموت عند الحاجة ليخلص معلمه. لذلك يوليه معلمه ثقة لا حد لها ويغدق عليه النعم و العطايا الجزيلة. وكلما شاخ الخادم في خدمته زادت محبة و اكرام المعلم له.

هذا هو نصيب كل انسان تخلى عن ذاته ليكرس نفسه لمصالح يسوع المسيح. هذا المعلم الالهي يدخله خدمته ويعهد اليه بحاجات بيته و يستودعه مصالح مجده و الدفاع عن كنيسته ونشر الانجيل. ويكلفه بمحاربة الضلال ونشر الحقيقة وتشهير الرذيلة وتشجيع الفضيلة.

امثال هؤلاء الرجال يكونون في الصفوف الاولى من جيش المسيح وهم يُعرفون من غيرتهم التي لا تعرف الكلل، وتجرّدهم، وامانتهم وإِخلاصهم. انهم ، كما يقول احدهم، يخدمون الله بجسارة وعناد. هم لا يعرفون المساومات ولا المهادنة، و الاعداء يعلمون عنهم كل هذا ولذلك يخشونهم.

هؤلاء هم العمال الرسوليون المتأهّبون دوماً لحمل نير يسوع والعمل على توسيع ملكه. تلك هي النفوس الصالحة المكرّسة لله و التي تقضي حياتها في تعزية المنكوبين و الاعتناء بالمرضى ونشر الايمان المسيحي. هذا هو الجيش العرمرم من الرجال و النساء الذين وقفوا حياتهم على أعمال البرّ، وجعلوا قواهم في خدمة القريب، وبذلوا اموالهم لمساعدة المساكين، واستخدموا مواهبهم للدفاع عن الحقيقة.

إِن يسوع يعرفهم كلهم باسمائهم، وهو فخور بخدماتهم ولهذا فهو يعاملهم كابطال، و يدّخر لهم الجزاء، و يشحذ هممهم دوماً للعمل. لكنهم يعرفون انهم الخدام المحبوبون و ان المعلم يثق بهم. لذا فانهم يُبلون بالحديد و النار، من اجله. لا بل انهم يريقون آخر قطرة من دمهم من اجل مجد اسمه.

و إِن ليسوع عدداً وفيراً من الخدام الامناء، وهم يشكلون السور الخارجي الذي يحمي مدينة الله.

المقالة الرابعة

الاصدقاء المسارّون

ان الله يعطي ثقته للخادم الامين، لكنه يعطي قلبه للصديق المسارّ. و النفس التي اسلمت ذاتها مرة لله، تتوق الى تجديد هذا العطاء. والشواغل و المعاكسات والالام واتفه حوادث الحياة اليومية تكوّن فرصة سانحة لتجديد بذل الذات لله. فالقلب، كالمادة القابلة الالتهاب، تكفي اقل شرارة لاشعاله.

فمتى توصلت النفس الى درجة المحبة هذه، فإن يسوع يعاملها كصديقة. و ليس من لذّة تعادل لذّة صداقة يسوع، هذه الصداقة التي يدرَك معناها الدقيق بالقلب لا بالفعل.

ان الصديق يعطي محبته ويسلم ذاته كلياً الى هذه المحبة. اما السيد فيعطي ثقته، و بكل مصالحه الى خادمه دون أن يُطلعه على اسراره أو ان يقرّبه منه ليتحدّث اليه بإلفة وبساطة، فهذا الامتياز قد خصص للصديق الحبيب حسب قول يسوع: " لقد دعوتكم اصدقائي لأنني اطلعتكم على كل ما سمعته من أبي السماوي".

عجيب هذا التجاهل من يسوع لمقامه الالهي، فإنه يعامل النفس معاملة الندّ للندّ! أليس في هذا كل دلائل الصداقة الحقيقية؟ فإن الاصدقاء متساوون، او يجب ان يصبحوا كذلك و يسوع يَضَعُ نفسه حتى حُقارتي، و يرفع حقارتي حتى الوهيته. السيد البشري يبقي بينه و بين خادمه كرامة الرفعة والسلطان، أما بين يسوع والنفس صديقته فيبدو انه ليس هناك من حاجز، بل فيض محبة و اشتراك في الافراح والاحزان وثقة واستسلام تامّين.

و بينما يكون الخادم منهمكاً، بأمر سيده، في المشاغل الخارجية، يتفرّغ الصديق الجالس بالقرب من صديقه الالهي للمناجاة الروحية. فبينما كانت مرتا منهمكة في خدمة يسوع وتلاميذه كانت مريم جالسة بهدوء عند قدمي المعلم. فيسوع قد الهم الاخت الكبرى نشاطاً معتدلاً، وهو مسرور بخدماتها، لكن ناظريه يستقرّان بحنوّ خاص على الاخت الصغرى. فالاولى اكثر نشاطاً، اما الثانية فأكثر محبة. واحدة . واحدة تجعل نفسها خادمة

نشيطة والاخرى تتوق لتكون صديقة يسوع. وعندما ينهي المعلم كلامه، تعود مريم الى عملها، بنشاط لا يقل عن نشاط اختها الكبرى، لكن عملها يحظى بتقدير اوفر من يسوع، لانها اكثر محبة.

آه! ما اسعد حال النفس صديقة يسوع، فهو يطلب منها الشيء الأكثر عذوبة: المحبة. امَّا من الخادم فيطلب الطاعة والامانة اولاً، واما من الصديق فيطلب القلب. ومتى اعطي القلب مرة، تصبح النفس ليسوع فتسعى لارضائه في جميع رغباته. الخادم يحتفظ بحريته، واما الصديق فيضحي بها لارضاء صفيّة واعلاء مجده.

ايتها النفس العزيزة، اقتربي من يسوع فجودته لا حد لها، وهو يحبك ويدعوك صديقته. انك خاطئة، ولاشك، لكن محبتك كفيلة بأن تفتح لك ابواب صلاحه، وسيغفر لك كثيراً ان استطعت ان تحبي كثيراً.

إن يسوع ينسى الخطايا، وهو على عكس البشر، لا يحفظ في اعماق قلبه اية مرارة. يا يسوع اني اومن بهذا. اومن به ايماناً ثابتاً ولن اشك في ذلك مطلقاً. الم اشعر بفرط صلاحك المرة تلو المرة؟ الم اسكب الدمع و انا اقرأ واعيد قراءة مثل الابن الشاطر و انجيل الراعي الصالح و توبة المجدلية وحنانك المؤثر تجاهها؟ آه ما اعظم صلاحك يا يسوع.

ان قلبك تأثر لرؤية أرملة نايين المسكينة تتبع باكية جثمان ابنها الوحيد، فاحييته. وفاض قلبك شفقة لرؤيتك حاجة الجموع التي هرعت الى القفر لتسمع اليك، فاشبعتها باعجوبة. واغرورقت عيناك بالدموع لدى رؤيتك مسبقاً ما كان ينتظر اورشليم العقوقة من ويلات ومصائب. وخشيت ان تكدّر والدتك الحنون فسبّقت اوان معجزاتك لترضيها. وتأثرت نفسك و اضطربت لرؤية حزن مرتا و مريم فبكيت، يا يسوع، واقمت اخاهما من الاموات. وتحننت على الجموع الهائمة كخراف لا راعي لها فاكثرت من جولاتك الرسولية في فلسطين ناشراً العجائب وشاملاً باحسانك كل من صادفت.

وماذا عساني ان اقول ان انا عدّدت دلائل حنوك على خاصة؟ بيد انه لابدّ لي من ان اصمت عن ذكر هذا، اليس كذلك يا يسوع؟ لا.لا. انك عندما تجتذب القلب تقوده الى العزلة، وهناك تكشف له اسرارك بعيداً عن كل اذن غير كتومة.

يا يسوع، اني اتبعك في عزلة قلبي و اسمع صوتك يدعوني هناك وانا اعرفه جيداً، فقد دعاني _ واأسفاه _ مرات كثيرة دون جدوى، وكثيراً ما خنقه ضجيج اشواقي الخيالية ومخاوفي الباطلة وشواغلي الطائشة. كنت على الباب يا يسوع تقرع و تنتظر... وكان قلبك العطشان الى المحبة يطلب نفسي وانا أتوارى واتهرب. اما الآن يا يسوع فانا اخصك. لقد اعطيتك ذاتي و انت تقبلتني بفرح، وفتحت لي قلبك واريتني فيه مكاني الذي ظلَّ شاغراً مدة طويلة.

انني اريد ان انسيك بفرط محبتي ذلك الانتظار الطويل المؤسف، و اما صداقتنا فلن تعرف الافول. فاشملني بعينك الساهرة يا يسوع فانا قد اسلمت امري اليك فهب لي ان ابادلك المحبة و اعوّضك عن المساوئ الكثيرة التي اقترفتها تجاهك.

المقالة الخامسة

ابناء الله

هل تسمعين يا نفسي صوت الله ابيك؟ انه يدعوك الى الفة اعظم. فانت خادمته و صديقتته، وهو يريد ان يجعل منك ابنته.

ان السيد بولي خادمه الامين ثقته و يخص صديقه بمودته، و اما ابنه فيشركه في حنانه الابوي. وهذا الاتصال الجديد البالغ العمق من قبل الله هو ثمرة بذل الذات الذي اصبح عادة و طبيعة يرد عليها الله بالفة من نوع جديد، فيعامل النفس كابنته المحبوبة.

ان الصديق لا يزور صديقه الا زيارات متقطعة و النفس صديقة الله لا تستطيع ان تتحدث معه بطريقة مستمرة؛ فالشواغل و المهامّ والمتاعب تمنعها عن ذلك. وهي تسهر بعناية على الاكثار من تمارينها الداخلية و تأَملاتها وفحص ضميرها وقراءاتها الروحية. فهذه كلها مثل الزيارات للحبيب كما انها ضرورية لتغذية الصداقة.

اما الابن، فهو لا يترك البيت الابوي اذ انه ليس ضيفاً بل ابن البيت؛ وهو لا يقوم بزيارات لوالديه بل يمضي حياته بقربهما، فيعمل و يلهو في كنف والديه و رعايتهما.

والنفس ابنة الله تقوم بالتمارين التي يفرضها عليها الواجب؛ وفي ما تبقى، فهي تلتصق بالله بحرية تامة وتقرأ في عيني ابيها حتى اقل الرغبات و تتممها حالاً. وعندما تتمم هذا الواجب، غالباً ما يدعوها الله الى ان تزداد قرباً منه. تلك هي السهرات العائلية و الساعات العذبة التي يظهر فيها الله لابنته حناناً لا يوصف ويعلّمها واجبها و يزيدها شركة في حياته الخاصة.

والنفس الطيّعة تستسلم لكل مظاهر حنان الهها. فلا تفيض باحاديث باطلة او بسيل من الاقوال بل تريح نظرها بهدوء وحب في عيني أَبيها، ففي هذه النظرة البسيطة كل قول.

على الصديق ان يسهر على مصالحه الشخصية وعلى مصالح اسرته، و ان يحسب و ينظم نفقاته و يرتب ميزانيته. و النفس صديقة الله لا تتخلى عن الاهتمام بتقدمها في الحياة الروحية بل توجه كل جهودها الى التقدم والى تقليل خطاياها و الى ادخال حبها لله في كل شؤون الحياة. فحياتها تمرين و صراع وعمل لا يتوقف.

اما ابن الله، فهو لا يحتقر هذا الجهد الشاق ولا يستخف به لكنّه يعتبر ان هذا العمل ليس من اختصاصه. فهو ابن البيت، والاب و الام يعتنيان بشؤونه التي هي شؤونهما. انه ينفذ بطيبة خاطر ما يأمره به ابوه؛ و ان اخطأ تداركت امه الحبيبة كل شيء. انه يعيش هادئاً في حضن اسرته: الا يملك خيرات عظيمة واسعة؟ اليس هو وارثاً للملكوت؟ ليس له أن يحطاط للمستقبل أو يهتم به، بل ان يرضي اباه، و ان يحبه في كل لحظة وأن يظهر له ذلك بالحنان الذي لا حدّ له وبالطاعة العمياء.

ان حياة ابناء الله الحقيقيين تخفي على عيون الناس. فالله يخفي هذا الكنز عن الانظار الغريبة. ثم ان العالم لا يفهم حياة تُقضى كلها في خدمة الله ومحبته. انه يهزأ ببساطة الصديق الذي يحتقر خيرات هذه الدنيا. وكذلك النفوس المسيحية العامّية لا تدرك اكثر من سواها سمو حياة مكرسة ليسوع، فتظهر لها النفوس الهائمة بالله عاطلة عن العمل وغير نافعة للارض. انها تبحث عن النشاط والحركة والعظمة؛ اما الحياة التي كرّست لخدمة الله في الخفاء و العزلة، دون اثر خارجي بيّن، فتظهر لها بدون قيمة او نفع للكنيسة.

والنفوس الصالحة والعزيزة على الله، التي لم تصل بعد الى القمم التي يقطنها ابناء الله قد تعجب هي ايضاً احيانا من بساطة حياتها. انها تظن أن القديسين يتميزون بخدمات ممتازة ادوها للكنيسة، و بفضائل باهرة واعمال بطولية، ثم تلاحظ ان كل شيء فيهم هو على عكس ذلك بسيط و يكاد يكون عادياً . فتتساءل اين هي الفضيلة، اين هي القداسة؟ انها لا تلاحظ الا اعمالاً عادية ووجوداً عادياً وشواغل مبتذلة، فليس هناك من تقشف او صلوات طويلة لان نفوس ابناء الله تكتفي بان تسير سيرة العامة من سواد الناس. انها بشوشة بالحقيقة، ومهذبة و مُحبة ودقيقة، لكنها قلما تُرى في المجتمع، كما انها تكون احياناً قليلة الاطلاع على الحوادث الجارية و المجاملات العالمية، واحياناً لا يكون لها تأثير في اترابها، ولا اهمية ولا شهرة.

يا الهي، ما اكثر ما يخطئ الناس في تقدير استحقاق ابنائك! ان هذه الحياة البسيطة والخالية من الابهة، المستسلمة كلها لمحبتك هي الحياة المتسترة مع يسوع المسيح في الله، تلك التي يوصي بها الرسول، هي الحياة التي عاشتها الأم المعظمة، سلطانة القديسين، هي صورة طبق الاصل لحياة يسوع البسيطة و المجهولة.

صحيح ان هذه الحياة المنسية و المزدراة و المعذبة كانت عثرة لليهود و جهالة للامم. وصحيح ايضاً انها في عصرنا هذا هدف للسخرية و التحقير من قبل حكماء العالم، ولكن هل هذا يقلل من قداستها و سموها؟

ايتها النفس السعيدة، ابنه الله المستترة، ما اقلّ اهتمامك باهمال ابناء هذا الدهر وسخريتهم وهزئهم! انك تعرضين عن ذمهم و افتراءاتهم! انهم لم يدخلوا يوماً القصر الذي تسكنينه فاعينهم لا تستطيع تحمل البهاء الذي يسطع فيه هذا المسكن السماوي، و آذانهم لا تستطيع سماع اللغة الالهية التي تسمعينها هناك. انك تنتمين الى عالم آخر غير عالمهم وتعيشين متسترة في الله، فانت ابنته المصطفاة.

يا ابنة الملك! ارتفعي الى شرف اصلك الالهي ولا تقلقي البتة لما يتعلق بثروتك الروحية. بل تابعي حياتك البسيطة في حضن الله، وتممي مشيئاته و احبيه بغير حساب ولا تخافي البتة: فانت غنية بحكم حقك في الارث السماوي.

الفصل الثاني

حياة نسيان الذات

المقالة الاولى

معنى نسيان الذات

النفس التي استسلمت للّه لم تعد ملكاً لذاتها ولم يبق لها في نظرها وجود، لم تعد تحيا بذاتها، بل بالذي تكرست له، ولم تُبقِ لها مصالح غير مصالح سيدها.

نسيان الذات هو الشريعة العظمى لكل حياة روحية و معناه ان نقصي عن اعمالنا واوجاعنا وصلواتنا كل حساب بشري وكل انانية و محبة للذات.

نسيان الذات يعني ان يتقبل المرء ببساطة من يد الله كل عذاب وكل صعوبة دون تذمر او اعتزاز ودون النظر الى طبيعة الحدث و مدته كما لو ان ذلك يصيب شخصاً غريباً عنه. انه يعني طلب المسرات الشخصية باعتدال والهرب مما هو محرم منها، فلا يُنتقى مما تبقى الا ما هيأته العناية الالهية.

نسيان الذات يعني أن يقدر المرء نفسه على حقيقتها أي كسقطٍ خاطئ، و ألا يشغّل ذاكرته و ذاكرة الاخرين بشخصه و مزاياه واعماله، بل أن يتجنب إلقاء نظرة قلقة و طويلة الى أوهانه. انه يعني الاحتجاب عن اعيننا الخاصة بفعل ارادي، حتى لا نجد في ذاتنا وفي الآخرين، في الاشخاص وفي الاشياء، سوى يسوع و مشيئته المقدسة.

لقد قال يسوع: من يريد ان يتبعني فليكفر بنفسه. ولذا فمن اراد ان يكون له نصيب من قيامة المسيح فليرض اولاً بان يموت معه. و من اراد ان ينهض من القبر مع يسوع ممجداً فلينزل اليه معه اولاً. ومن اشتهى ان يجد خلاص حياته فليضحِ بها.

اذن فنسيان الذات هو نكرانها و الإماتة والتواضع والموت بالنسبة للعالم، نسيان الذات هو التجرد الشامل.

وما الذي يجرد النفس المستسلمة للّه هكذا؟ إنه الحبّ. و الحب جبَّار غيور يطلب كل شيء ولا يردّ شيئاً. و متى هيمن على النفس كلها جعلها أفقر الخلائق. ان النفس العادية تستطيع استدراك المستقبل و تهيئة المناهج و رسم المشاريع. انها تستطيع اختيار شواغلها و تسلياتها و مسراتها وهي تحيط ذاتها بتقدير الآخرين و اعتبارهم. انها حرة في ابداء المودة و الصداقة او حجبهما.

اما النفس التي استولى عليها الحب فقد اضاعت كل شيء. فهي لا تسود عقلها ولا ارادتها ولا مشاعرها ولا وقتها ولا صحتها، اذ لم يُترك لها شيء. لقد نزعت منها اشواقها و ميولها و مؤهلاتها و كل ما هو ثروة وافتخار للآخرين. ذلك كله قد انتقل الى خدمة سيدها. و النفس ترضى بهذا التعري فتنعم برؤية ذاتها مسلوبة من ذاتها. و تخشى ان تسترجع ما هو لها و تستعطف يسوع حتى لا يرده لها ابداً.

يا للجنون الالهي! علمنا يا يسوع ان ننسى ذواتنا.

المقالة الثانية

كيف تنسى النفس البسيطة ذاتها في كل شيء

ان النفس التي نسيت ذاتها تسكن في اعماق الله. و حياتها، في بساطتها، مليئة بالعجائب، لكنها متوارية عن انظار الانسان العامّي.

لا فرق بين النفس المستسلمة و النفس البسيطة. فالنفس المستسلمة بكاملها لله لا تملك سوى نظرٍ واحدٍ تثبته في الله. انها لا تملك سوى حركة واحدة توجهها في كل اعمالها نحو الله و تثبتها فيه، دون أن تعود فتنزلها نحو ذاتها. انه لمدّ دائم نحو المحيط الالهي لا يعقبه جزر البتة.

البساطة تبعد بطبيعتها كلّ تفكير. فالنفس المستسلمة لله لا تفكر بذاتها ولا باعمالها الصالحة ولا بنقاوة سيرتها ولا بالاستحقاقات التي تكدسها بلا انقطاع. انها لا تتساءل عماً يفكّر بشأنها الآخرون. ولا تسعى لاشغال الآخرين بشخصها واعمالها، ولا بنقائصها و هفواتها. إنها لا تتوق الى ان تحب ولا الى ان تكون محبوبة على هذه الارض، فهذا فعل امتلاك لا يحق لها. وهي لا تطلب لذاتها الرضى والحظوة حتى ولا عطف أي انسان، لانها لا تستطيع ان تدّعي شيئاً مادام انها ليست بشيء.

النفس المستسلمة ليسوع تحب معلمها الالهي بحرارة وتظهر له هذه المحبة بمختلف الطرق. و تجد في كل حين طرقاً جديدة لترضى يسوع لان المحبة خلاقة الاساليب. لكن هذه المحبة هي ايضاً بسيطة ولا تنكمش على ذاتها.

هذه النفس تحب في الشدائد و التجارب و الظلمات و الاحزان، كما في اوقات النور و التعزية. واذا وجه اليها يسوع فيض حنانه و غمرها بالفرح و المسرات فهي تتقبل عطاياه بشكر و استسلام.

النفس البسيطة لا تسأل يسوع ابداً عن دوافع تصرفه نحوها لأنها كالطين في يد الخزّاف ترى الاشكال التي يعطيها لها يسوع غريبة و غير مدركة. ولكن هل يستطيع الاناء ان يقول لصانعه: لمَ صنعتني على هذا الشكل؟

كذلك ترى النفس ان السبل التي يقودها فيها مرشدها الالهي لا يسبر غورها. ولكن هل بإمكانها إسداء النصح للحكمة الازلية؟ انها تتقدّم بلا خوف تحت إرشاده دون أن تثبت انظاراً قلقة في مستقبل تجهله و دون أن تهتم بماض لا يحيا الا في الله. ان الحاضر وحده يشغلها، و لكن من غير تعلق مفرط، لانها تعرف ان كل عمل و كل اهتمام على هذه الارض انما جعل لتمضية الوقت. بوسع السيد ان يستغني عن خدماتها، فاذا طلب منها ان تعمل لمجده، فذلك لانه يريد تقصير وقت منفاها. ولذلك لا تميز بين الاعمال المختلفة التي تفرضها عليها الطاعة؛ كل شيء حسن في عينها لانه من الله يأتي.

وقد تكون الخدمة التي يطلبها الله منها مستحبة احياناً و مطابقة لرغباتها، فتشكر الله على ذلك وتتقبل منه ببساطة هذا السرور من غير ان تتوقف عنده. ويكون العمل صعباً احياناً ويعرضها لمفاجآت مكروهة وعلاقات متعبة واذلال و اضطهاد. إلا ان النفس التي نسيت ذاتها لا تعير أي انتباه ما يعذبها و يُمرها او يذلها، فهي لا تعيش لذاتها بل لسيدها. انها لا تأبه بإهانة توجه اليها او بعار يلصق بها او باحتقار تتعرض له. و كيف السبيل الى رؤية هذه الامور وقد تناست وجودها. لذا تراها تواصل العمل الذي بدأته لمجد الله بكل هدوء، و إن رزحت تحت عبء المهمة ولو سحقتها ضربات الشتيمة و الاضطهاد.

ان بساطة النفس و تجردها غالباً ما يثير ان الدهشة في العالم حيث كل شيء رياء و انانية. و يحاول الناس احياناً استغلال هذه الاستقامة و السذاجة، فينصبون لها شراكاً و يحاولون التغرير بسلامة طويتها. لكن النفس البسيطة التي ليست في نظر ذاتها شيئاً ، و التي نسيت ذاتها، لا تؤثر فيها المفاجأة لأن التعامل ليس معها بل مع الله، و ليست هي التي يحاول الناس إلقاءَها في الحيرة و الارتباك بل الله نفسه.

المقالة الثالثة

النفس البسيطة تحب الصليب

ان النفس التي نسيت ذاتها بالكلية تقوم بكل اعمالها ببساطة بارشاد نيّتها السليمة دونما انكماش او انانية؛ انها شكورة دوماً لله على كل اعماله و تدابيره. و سيَّان عندها العافية او المرض، اليسر او العسر، النجاح او الخيبة، الحياة او الموت، بل تتقبل الألم برضى، بأي شكل يعرض لها، لانه دوماً من المسيح يأتي.

ان الانسان الذي ينقصه الايمان الحي لا يكتشف دوماً يسوع وراء الحجب التي تحيط به؛ فقليلون من الذين عايشوا يسوع عرفوا انه المسيح الحقيقي. ولقد اثار دهشة الرسل والمجدلية بالمظاهر التي كان يتراءى لهم فيها بعد موته وقيامته. اما الآن فهو لايزال معنا في القربان المقدّس بصورة سرَّية خفية عن العيون البشرية لكن النفوس اليقظة التي غمرتها المحبة تتعرّف على المعلم من الصليب الذي يلازمه والذي خلّص به العالم و أراد لكل أصدقائه ان يكون لهم منه نصيب.

ايتها النفوس العزيزة، عندما يلمّ بك الالم قولي: " هوذا يسوع يمرّ"، و بادري إليه ولا تتركيه منحنياً تحت ثقل حمله بل مدّي ساعديك وقدّمي كتفيك لتشاطريه حمل صليبه فإنما مرّ بك ليدعوكِ الى مساعدته. لا تتعجبي من تنوّع الصلبان التي ينعم بها عليك و كثرتها. فالمعاكسات و الآلام النفسية و أحزان القلب و الاضطهادت و الفشل والعسر المادي والضيق المعنوي وقلق الضمير والعاهات الجسدية: تلك كلها صورٌ لصليب يسوع علينا أن نتقبلها: " من اراد ان يتبعني، فليكفر بنفسه وليحمل صليبه و يتبعني".

ولكن الى اين يقود المسيح النفس؟ _ انه يقودها الى الجلجلة ان كانت امينة فتعلق على الصليب و تموت عليه فيقول لها يسوع: لقد زرعتك في الارض يا حبة الحنطة الصغيرة لتموتي فيها و تنحلّين، ولكن متى متِّ تنبعث منك الحياة و ينبت جذع جديد من قلبك وعلى هذا الجذع تعاودك الحياة و تخصبين.

يا لسر الصليب! لابد لنا من ان نموت لنحيا، فالايمان يعلمني ذلك و العقل يوحيه اليَّ والطبيعة بأسرها تشهد به. فلكي أصبح شيئاً يجب ان أرتضي بأن اتلاشى و بأن أنسى ذاتي و بأن أُلقى في الارض و أفنى فيها.

آه: كم أودّ أن أكون حبة الحنطة هذه، المدفونة في احشاء الارض. إِني اشعر بأن يسوع يبقيني سجينا على هذه الارض فحياتي تنقضي و كأَنها عقيمة. و القوى التي اعطانيها الله تضمحلّ وتفنى لا في خدمة القضايا العظيمة المقدّسة، بل في بطالة قسرية تبدو بلا نهاية. هذا هو القبر، هذا هو الموت! ولكن ماذا يضيرني، فإِن يسوع يرعاني بعينه الساهرة، ولسوف يبعث الحياة و الخصب من قبري متى ارتضى ذلك، وعندها يكون دور جهادي على هذه الارض قد تمّ.

المقالة الرابعة

كل شيء يدعو النفس الى ان تنسى ذاتها

ايتها النفس العزيزة، إنك مرتبطة بالهك في كل شيء حتى في اقل شؤون حياتك اهمية، و له عليك سلطان تام مطلق. فلا وجود لك الا به و لا يمكنك ان تحيي إلا له و بحسب مشيئته. اليس من العدل ان يكون هو محور كل اعمالك و رغباتك وافكارك وكل ما لك و كل كيانك؟ اليس من العدل ان تنسى ذاتك و تُمحي امامه؟ إلا ان طبيعتنا ضعيفة يا يسوع وهي تحاول قلب النظام الذي وضعته و تسعى أن تحل محلّ الله وتجعل من ذاتها المحور الذي تدور حوله كل الخلائق حتى الله نفسه. عجيب أمر هذا الكوكب السيار فهو يحاول أن يأخذ مكان الشمس، وهذه الحبة من الرمل تتطاول كي تكون جبلاً، و نقطة الماء تتشامخ لتملأ المحيط الكبير.

يا لفساد الفهم البشري و انحرافه! لقد جعل العقل البشري من ذاته الهاً، و قلب عرش الله، و قدم ذاته للعبادة، و اعلن حقوقه تجاه الله و املى عليه واجباته، و اعطى البشر الحرية بعد أن قيدهم بقيود الشيطان وجعل المساواة بأن أقام على نفسه طغاة و نشر الاخوّة بعد ان فصل المحبة عنها.

وما فعلته الكبرياء الجماعية تفعله كل يوم الكبرياء الفردية، فينسى المرء انه كائن من العدم تابع بجوهره، لا يحيا إلا بواسطة كائن آخر أسمى. فتراه يعسكر في ميدان كرامته و يقيم نفسه سيداً مستقلاً و يبسط سلطانه على كل ما يحيط به و يرفض بتحدٍ وقح ان يؤدي واجب الخضوع الذي يطلبه الاله الازلي مبدع الخليقة كلها.

"استمعي ايتها السماوات و انصتي ايتها الارض فان الرب قد تكلم. عرف الثور قانيه و الحمار معلف صاحبه لكن اسرائيل لم يعرف و شعبي لم يفهم. اني ربيت بنين ورفعتهم لكنهم تمردوا عليّ".

لقد قلبت الخطيئة أوضاع الطبيعة البشرية المسكينة فاصبحت لا تحلم الا بالاستقلال و العظمة و باللذة والغنى، بينما كل ما في الكون مضافاً الى النعمة الالهية يهيب بها ان تتضع و تزهد في مقتنيات هذا العالم.

أما علامات الموت الكثيرة التي أحاط الله بها الانسان فلم تكن إلا ليعلمه أن يفتش فيها عن الحياة الحقيقية.

كل الاصوات التي تطرق سمعه تدعوه الى نسيان الذات ليصل الى المجد الحقيقي. كل المسالك التي تطأها قدماه لا تقوده الى النور الا عبر الظلمات. كل ما حوله و ما في داخله ينبهه إلى أنه أُخذ من العدم فهو يرى جسده يتداعى تدريجياً و يسير في طريق القبر يوماً بعد يوم. و يرى احلام السعادة التي هدهدت صباه تتلاشى واحداً فواحداً كأطياف عابرة. لقد ظنّ أنه حر مكرّم محبوب وذو سلطان. لكن الواقع الاليم يريه انه تحت رحمة الاحداث و انه العوبة تلهو بها مخيلته، و ضحية لجشع الآخرين و أنانيتهم. كل شيء يردد أمامه أنه في غاية الصغر و الحقارة و كأنه لا وجود له في هذا الكون. كل شيء يدعوه الى ان ينسى ذاته و يتضع جداً.

ما اعظم السعادة والحرية التي تتمتع بها النفس لو عرفت أن تصغي إِلى هذا الصوت و ترجع بتواضع كلي إِلى العدم الذي أُخذت منه، و استطاعت أن تعيد نهائياً النظام الذي طالما خرقته بكبريائها و عنادها.

المقالة الخامسة

المحبة تساعد على نسيان الذات

ان نسيان الذات يخيف اكثر النفوس، فهي لا تدرك كيف يمكن ان تحب الصليب و تتقبل الاذلال و الاحتقار، لأنها تجهل سرّ المحبة المقدّسة التي لا يمكن أن يوجد بدونها نسيان حقيقي للذات بل أنانية دنيئة و شهوة و كبرياء.

اما بالمحبة فيعرف الفكر، مهما كان ضالاً، ان يجد سبيله، والقلب، مهما كان منحطاً، ان يسترجع نبله. المحبة المقدسة وحدها تنظم القلب فيتدارك انحرافاته و يقصي عنه الفوضى. فيبدّل الانانية بالعطاء، و الكبرياء بالتواضع، والسعي الشهواني وراء اللذّات والمجد الباطل بالاماتة ونكران الذات.

و مهما انحدر الانسان وتمادى في الخطيئة يظل محتفظاً بأثر من جماله القديم. إنه طموح يسعى باندفاع وراء امجاد باطلة و كنوز زائلة: ألم يُخلق ليحرز كرامة لا حدّ لها و يملك خيرات لا تحصى. إنه يحب التمتع و يلاحق لذاته بعناد شديد: أليس له الحق بلذات لا نهاية لها و سعادة لا يمازجها كدر؟ إنه يتهرب من التعب و يمقت الالم و يكره العمل: ألم يُخلق لراحة و لسعادة لا توصف؟ انه يخشى الخضوع و يمقت العبودية و يثور ضد القوة: ذلك أن دما ملوكياً يجري في عروقه، فهو ابن الله و مخلوق على صورته و مؤهّل لملك.

أَعِد المحبة الى هذا الانسان تحوّله الى بطل و قديس. فالمحبة هي المغناطيس الذي لا يقاوَم والذي يجذب اليه كل قوى النفس، فإذا الطموح والرغبة في الكرامة يتحوّلان بفعلها القوي إلى غيرة مضطرمة على مجد الله؛ والسعي وراء اللذة يتحوّل الى تعطش شديد لارضاء الرب يسوع.

يا لقوة المحبة! إنها كجيش اصطف للقتال.

ان قوة القائد تأتي من الحماسة التي يبثها في جنوده. فالجيش يتألف، في الاساس، من عناصر متباينة غير متجانسة لا يجمع بينها سوى اللباس و العزم و الشوق الى القتال. و متى كان على رأسهم قائد محبوب قادر

على تنظيمهم فهو يجعل منهم جيشاً مرهوباً، إذ يجمع حوله كل العناصر فتتبنى مخطط القائد عقول الوف المحاربين وترضخ ارادتهم لاوامره حتى إنهم، ارضاءً له، يقاتلون حتى الموت.

هكذا النفس التي تخوض معركة القداسة، عليها ان تستوحي هذا المثل. ففيها تجيش نزوات جامحة تشكل قوى رهيبة إن لم يسيطر عليها القلب انقلبت عليه. و السبيل الى هذه السيطرة يكون باعطائها قائداً محبوباً يُخضعها له و يضبطها و ينسقها و هذا القائد هو يسوع المسيح.

اجعل يا يسوع عرشك في قلبي لتأتي وتنحني أمامك كل قواي التي شغفت بك و ارتضي بأَن تتحوَّل إلى طاقات للخير مرهوبة لدى الجحيم. أَجل يا سيدي، فليس لي ان اهدم طبيعتي بل ان أَتنازل لك عنها لتنفذ اليها محبتك و تنقيها. فالطريقة المثلى لكيما انسى ذاتي هي ان احبك و ان اشغل فكري كلياً بهذه المحبة. فاملأ يارب جوانب نفسي و لا تدع لي فيها مكانا شاغراً كيما أرجع إلى فلك قلبك الالهي كما رجعت حمامة نوح بعد أن عجزت عن إيجاد مأوى لذاتها خارج الفلك.

المقالة السادسة

كلما زادت النفس في نسيان ذاتها، زاد اعتناء الله بها

ليس علي الارض اعذب من محبة تامة النقاء والصفاء متحررة من كل انانية. غير أَن هذه المحبة لا يمكن أَن توجد إِلاَّ بين روحين لم تشوّه الخطيئة صفاءهما و نقاوتهما. والنفس تمتلئ حزنا لدى تفكيرها في ان صداقة جميلة كهذه لا توجد على الارض. و مع ذلك فالقلب البشري يحلم بمثل هذه المحبة و يتوق اليها و لا تهبط له عزيمة في السعي وراءها.

يا يسوع ان قلبي يفيض غبطة. فهذه المحبة التي طالما حلمنا بها هي حقيقة قائمة يعرفها قلبك و خبرتها ربوات من النفوس النقية.

و مما يزيد في بهجة هذه الصداقة انها، في جوهرها محبة متبادلة، لأن الصديق لا يحيا في ذاته بل في صديقه، مفكّراً فقط في ما يرضي ذلك الصديق. و تتكون هذه المحبة المجردة في النفس على درجات و ينصرف اهتمام يسوع الى تقويتها و تنقيتها من كل محبة للذات.

لكن هذه المحبة كاملة منذ ابتدائها من جهة يسوع فهو يعطي ذاته بكاملها ولا تحفظ حالما تستسلم له النفس. ولا يكتفي بهذا بل يواصل سهره عليها فيقيم عناية محسوسة بجانب كل ضعيف و عاجز على هذه الارض. و قد عهد الى كنيسته المقدّسة بأن تعالج مشاكل المجتمع فتداوي كل مرض، وتبدّد كل جهل و تقوّم كل اعوجاج.

و كل نفس تهم يسوع بمفردها بقدر ما يهمه العالم كله مجتمعاً فهل يقال: ليس هناك من يسهر بجانب النفس الضعيفة التي لا سند لها؟ كلا ايها المعلم الصالح لن يكون ذلك، فان حنوك لا يطيق هذا الافتراض.

ولكن ما عسانا ان نقول اذا كانت تلك النفس فقيرة عن اختيار و رضى و اذا دفعها جنون مقدس سامٍ فتنازلت بين يديك عن كل ممتلكاتها، و احتفظت فقط بشاغل محبتها لك؟ و ماذا نقول على الاخص، يا يسوع، اذا قامت النفس بهذا التخلي الشامل عن كل عون مخلوق، بدعوة منك و انقياداً لرغبتك وامتثالاً لامرك؟ انك يا

يسوع عندما تعظم محبتك نحو خليقتك بهذا السخاء لا تلزم قلبها فقط بل شرفها ايضاً. فانك إذ تاسرها ببهاء صليبك تنزع منها كل ما تملك، أَفليس من العدل ان تُصبح انت وحدك لها كل شيء.

ايتها النفس العزيزة، ايا كانت القمة التي تسكنينها، فانت بعيدة عن ادراك حنان يسوع الذي يعطيك قلبه اذ يأخذ قلبك . انك بالرغم من صداقتك للمعلم الالهي لا تزالين تعيشين تحت غشاء الاسرار تحيط بك ظلال الايمان. ولسوف يكشف لك يسوع في ملكوته السماوي الذي لا انقضاء له ما كنت له على هذه الارض.

و ما ستكونين له الى الابد. فاذا سمعت اليوم صوته طالبا منك ان تنسى ذاتك لتكوني له الى الابد فلا تترددي ولا تحاولي حرق حرمة السر، بل قولي ببساطة مع الام الالهية: فليكن لي حسب قولك.

المقالة السابعة

كلما زادت النفس في نسيان ذاتها زاد تفكير الله بها

كلما تقدمت النفس في الكمال، زادت حياتها الروحية بساطة و هي تتلخص في النهاية في هذه الكلمات التي قالها يسوع لاحدى خادماته" فكري بي فافكر بك". وهذا يعني: افكر بسعادتك، بصحتك، بخيراتك الدنيوية، افكر بخلاصك، بكمالك، بقداستك، ويسوع الذي يعرف كل شيء لا ينسى شيئاً. فعندما يطلب من النفس تضحية عظيمة مثل النسيان التام للذات فانه يأخذ على نفسه تدارك كل المتاعب التي قد تنتج عنها بشرياً. فما على النفس إلا ان تطيع و ان تمتنع عن تفحص المستقبل.

كانت الارملة المسكينة سارِبتا في فقر مدقع يوم قابلت النبي ايليا. ولم يبق لديها سوى حفنة من الدقيق و قليل من الزيت تسد به الرمق مع ابنها ولا مفرّ من الموت جوعاً. و مع ذلك ، عندما سألها ذلك الغريب طعاماً اعطته آخر قوت عندها. كان ذلك جنونا بعرف البشر، الا انه حكمة امام الله، وكان مبعث العجيبة.

والنفس البسيطة حقا تسلك على هذا النحو مع الله. فهي لا تفكر الا بالواجبات التي تفرضها عليها حالتها الحاضرة. إنها لا تعرف التحسّب والمداورة و المخاتلة لأن الله يتعهدها. و المكر و الكذب يعجزان عن الإضرار بها. وقد يظن المخادع أحياناً بان النفس البسيطة واقعة حتماً في حبائله ولكن سرعان ما يخيب ظنه إذ يُفتضح أمره بحادث غير منتظر أو بواسطة كلمة أو اشارة عفوية.

قال الرب لتلاميذه: عندما تمثلون امام عظماء هذا العالم لا تهتمّوا بما ستقولونه دفاعاً عن انفسكم. فالروح القدس نفسه يضع في افواهكم ما يجب ان تقولوه. ولو ان الرسل حسبوا حسابات بشرية لما سيحدث لهم نتيجة أعمالهم الجريئة لما قاموا بالبشارة. لكنهم تركوا الروح القدس يقودهم حيث يشاء فأتمّوا البشارة على أكمل وجه.

ان حكمة يسوع الالهية لا تكتفي بالتفكير في أُمور النفس البسيطة، بل تتدارك أيضاً الأخطار التي يمكن أن تتعرض لها بسبب جهلها وعدم تبصُّرها. لا يوجد انسان، مهما كان ذكياً وفطيناً، لا يتعثر في خطاه. فهذا

التعثر يكون موضوع احزان وذل عند عامة البشر وربما تعرضوا بسببه للهزء والشماتة. لكن مقاصد الله تشاء ان يكون هذا وسيلة لاتضاعهم وتقويم اعوجاجهم و الحد من صلفهم.

واما مع النفس البسيطة فتصرف الله يختلف عن هذا تماماً إذ يسمح ببعض التعثر _ و في حياة كل قديس امثلة على ذلك _ والامر الغريب هو ان هذا التعثر يبقى عادم المفعول بل كثيراً ما يكون للخير و التقدم.

والنفس لا تخسر مطلقاً اذ تدع الله يفكر لاجلها. فالقديس بطرس لما أدرك ان الشبح الذي اخافه و هو ماشٍ على مياه بحيرة طبريا، كان يسوع، ارتفع ونسي نفسه قائلاً: " يا معلم ان كنت أَنت هو فمرني ان آتي اليك على المياه". ان بطرس، بطبيعته العفوية لم يضع وقتاً في التفكير بل بادر و مشى فوق المياه، إلا أَنه لما رأَى فجأة الامواج الطاغية تهدده لم يعد يفكر بالمعلم القدير بل فكر بنفسه وبضعفه فشك وبدأَ يغرق. ولكن لحسن الحظ كان يسوع هناك ليتدارك كل خطر.

و مما يثير الملاحظة في الانجيل المقدس ان يسوع يقف دائماً مدافعاً عن الضعفاء والمفترى عليهم، ولو كانوا من الخطاة التائبين و ما ان يبدي الشخص نحوه بعض الثقة حتى يشعر بأنه ملزم بالدفاع عنه.

فانه وقف ضد تلاميذه الى جانب الامهات اللواتي احتشدن حوله مع اولادهن. و دافع تجاه الحاسدين عن التائب الجديد زكا الذي صعد الى الجميزة ليراه عند مروره، مع كون هذا العمل يعرضه للسخرية. وحافظ على المرأَة الزانية و أخجل رياء الذين شكوها وصرفها تائبة مؤمنة، و مانع في صرف الجموع التي تبعته الى القفر جائعين لئلا يخوروا في الطريق. و دافع عن رسله الذين اخذهم الجوع فقطفوا السنابل في البرية يوم السبت. و بسط حمايته على مريم المجدلية و دفع عنها شر مضطهديها لانها احبت كثيراً فاستحقت ان يغفر لها كثيراً.

كانت مريم من أَعرق عائلات مجدل و اشتهرت بفجورها. لكنها، دون ان تخبر احداً بالتحول الذي حصل لها، جثت عند قدمي يسوع لتقدم اتضاعاً حسبه البعض هوساً و تطرفاً. فقد دخلت بيتاً غريباً عنها و أَثارت فيه الاضطراب بين المدعوين و سببت خجلاً لرب البيت.

ايتها المجدلية! انك لم تهتمي بما اثرت و سببت من مشاكل عندما كان يسوع حاضراً يتوقع وقوعك على قدميه لاول مرة! فقد تكفل المعلم بأن يجيب عنك.

ولم يتوانَ يسوع عن القيام بذلك فيما بعد ايضاً. فقد دافع عن المجدلية تجاه مرتا التي ارادت ان تنتزعها من جلوسها الهادئ عند قدميه تسمع كلامه، وتجاه يهوذا الذي اتهمها بالاسراف. انه فعل اكثر من هذا فقد ارتضى ان يسجل تبريرها في الكتاب المقدس حتى يخبر بما فعلته حيثما يكرز ببشارة الانجيل.

و انت ايضاً، ايتها النفس الامينة، استسلمي ليسوع و انسي ذاتك، فيفكر يسوع لاجلك. ولن يقال ابداً إن ثمة كائناً ضعيفاً او محتاجاً لجأ الى قلبه ورجع فارغاً: " من يُقبل الي لا اخرجه خارجاً".

الفصل الثالث

حياة التفاني

المقالة الاولى

ما هو التفاني؟

بذل الذات للّه يعني الاستسلام له بمحبة مضطرمة. وهذا ما تفعله النفس المتخشعة في بدء حياتها الروحية و تجدّده مرّات عديدة ما استطاعت ذلك سبيلاً، سواء كان هذا وقت الصلاة ام وقت العمل أم إبان الاحزان والافراح أو الظلمة والنور أو التجارب الداخلية والتعزيات الالهية. و إذا بالمحبة تملأ النفس لهباً مقدّساً يطهّرها و ينقيها من كل خطيئة وعادة سيئة.

بذل الذات للّه يعني ان ننساها حتى لا نعود نفكر إلا بالذي استسلمنا له . وعندئذ يستولى الحب الالهي على النفس وينصب فيه عرشه و يطرد منه الافكار الباطلة واحداً تلو الآخر. و متى خضعت النفس لسلطانه، تنازلت عن منافعها الخاصة وعن تدبير شؤونها الشخصية وعن الاعتناء بمستقبلها، لتتكرس بكاملها لخدمته للّه تاركة له عبء الاهتمام بكل شيء.

بذل الذات للّه يعني التفاني في طاعته والتفرغ لخدمة الاهداف النبيلة والمقدسة، و التجند في جيش يسوع والعمل على توسيع ملكه بكل الوسائل الممكنة.

أن نحب، وأن ننسى ذاتنا، وأن نتفانى، ذلك هو بذل الذات، ذلك هو الكمال.

ان افضل معنى يمكن أن يُعطى لحياة الانسان الضعيف الفاني، هو التفاني في سبيل الآخرين و نسيان ذاته كيما يزداد محبة ليسوع.

التفاني يعني تسليم كل حياتنا ليسوع، و بذل كل قوى جسدنا له، و كل حماسة قلبنا و كل عزم ارادتنا وكل نتاج فكرنا.

التفاني يعني ان نسلّم ليسوع كل سلطان على كياننا، سائلينه ان يتصرف به عندما يشاء و بحسب رضاه، لمجد اسمه مهما اقتضى ذلك من جهد أو ألم، من نشاط أو راحة، من تعب أو إِماتة أو صوم.

التفاني يعني ان نكون تحت تصرف المعلم الالهي أنىّ دعانا: سواء في اعماق الدير ام في عزلة الصحراء، لنرفع الى الله يدين متضرعتين؛ في الساحات العامة المزدحمة لنذكرّ العالم الطائش بما تقتضيه الحياة من رصانة والتزام ام في البوادي الساكنة لنحمل الانجيل الى النفوس المسكينة الجالسة في ظلال الموت؛ في المشغل البسيط ام في المعمل الصاخب ام في الكوخ الحقير لنكسب بعرق جبيننا كفاف يومنا من الخبز لاسرتنا و كيما نبني العالم بجهدنا الذي لا يكل وحياتنا المستقيمة التي لا لوم فيها.

التفاني يعني بذل شبابنا و صحتنا ووقتنا ومالنا لاعانة البؤساء و تعليم الجهَّال والاعتناء بالمرضى و مساعدة الفقراء وهداية الضالين و إِغاثة اليتامى و مداواة الآلام البشرية التي لا تُحصى.

التفاني يعني نشر سلطان الحق و الخير والجمال في العالم، والعمل على إِقامة علاقات محبة ووئام بين الامم، والسعي لتقريب قلوب الشعوب في سبيل اتحادها كلها بالمسيح يسوع، وتعميم قيم العدالة والحق في المجتمع ومحاربة الضلال بأي شكل تقنّع.

التفاني يعني الاهتمام بأوضاع الطبقات الفقيرة الكادحة، والاسهام في تخفيف فقرهم المادي و الفكري و الخلقي، و الاشتراك في رفع مستوى الطبقة العاملة، والعمل على اخماد الاحقاد التي تفرق بين الفقراء و الاغنياء، بين العامل و رب العمل.

التفاني يعني، اخيراً، ان نكون في جهاد دائم، بحسب دعوة كل منَّا ووقته ووسائله، ضد الضلال والاثم لكيما نرفع راية الخير في كل بقعة من هذه الارض ونجمع قلوب الناس برباط المحبة فيخضعوا كلهم لغير الحق و يسجدوا للمعلم الاوحد، ليسوع ملك الدهور.

ما أوسع حقل العمل وما ارفع هذا المثال للقلب الذي شغف بحب إلهه!

المقالة الثانية

الله يوجه النفس في تفانيها

ان تعدد اعمال التفاني يخبئ فخاً لكثير من النفوس السمحة. فهي معرضة لتوزيع تفكيرها ووقتها و نشاطها على الوف الاعمال المختلفة. اما النفس البسيطة المستسلمة لمحبة يسوع فتستطيع تجنب هذا الفخ بسهولة.

إن لها في كل لحظة واجباً خاصاً تتمّمه بدقة وبلا عجلة أو تباطؤ، لانها التزمت قضية واحدة لا بديل يغني عنها وهي التفاني في سبيل الله. و إصرارها على حياة الامانة المستمرة هذه، هو من النوع الهادئ الصبور لانه افضل طريقة تبرهن فيها لله عن محبتها. كل هذا في الخفاء و الانسحاق حتى أنه لا يمكن لأحد ان يرى من مظاهرها انها تخبئ تحت ستار هذه الدقة و الثبات محبة عظيمة لالهها.

فما أعظم خطأ المرء يا يسوع عندما يظن ان التفاني في سبيلك يتطلب اعمالاً باهرة ووظائف رفيعة و مناسبات خارقة و مؤهلات خاصة و بيئة ملائمة! ان الحياة المتواضعة المكرسة كلها للواجب الموضوع امامنا هي الحياة الحقيقية، هي التفاني في أقوى معانيه و أشدها واقعية.

آه ما اقل تبصّر اولئك الذين يترفعون عن الوظائف المتواضعة والاهتمامات البسيطة والواجبات اليومية الحقيرة التي تمتلئ بها الحياة. انهم يريدون العظمة والشهرة والنفوذ ويُعجبون بالرجال المقتدرين الذين يثيرون حماسة الجموع ببلاغتهم و يلجون مجالس عظماء هذا العالم.

أما انا ايها المعلم الصالح، فاني اعجب اعجاباً اعظم بتلك النفوس المجاهدة التي تقضي حياتها في عمل خفي متواضع ومهما صادفها من صعوبات وعقوق فهي لاتني، ولا تنفكّ أمينة مخلصة و ان لم يكن حولها من ينظر إليها نظرة عطف و استحسان.

ان الواجبات اليومية، والاعمال التي تفرضها الظروف الحاضرة او وضع النفس ووظيفتها هي مدار نشاط النفس المكرسة لله. فان كانت امينة يُسرّ الله احياناً بتوسيع مجال عملها ويوحي لها باشغال أخرى أعظم اهمية واوسع مدى.

لذا كان واجب النفس ان تنتظر بهدوء نداء الله. فإذا دعاها منذ مطلع النهار لتذهب وتعمل في كرمه، تكون مستعدة وتطيع بفرح، واذا انتظر سيد الكرم حتى الساعة الحادية عشرة ليدعوها تكون ايضاً مسرورة، فذلك دليل على ان الله لم يكن بحاجة الى خدماتها قبل هذا الوقت. و ان لم يدعها البتة فهذه ايضاً مشيئته والدلالة الاكيدة على انه يريد ان يدع لها الوقت للتأمل. انه السيد وله وحده ان يحدّد ما يلائم مجده.

إن روح الله يهب حيث يشاء وعلى المرء ان يكون سريع الاستجابة لهمساته حذراً من ان يضع ارادته مكان ارادة الله فيفرض خدماته عليه تعالى. كلنا يعرف ان القديس منصور دي بول استطاع ان يحقق مشاريع كثيرة لتخفيف وطأة البؤس عن التعساء ولتعليم الاولاد و تبشير النفوس المهملة، وتقدم المؤمنين الروحي، ومع ذلك يقول القديس، إنني انتظر دوماً، قبل البدء باي عمل، أن تخطو العناية الالهية الخطوة الاولى. فليس هناك شيء اهم من هذا الخضوع التام للمشيئة الالهية.

ومتى اعلن الله مشيئته بوضوح فان النفس لا تعود تتردّد بل تستسلم بفرح و تبذل ذاتها بلا حساب. كما انها تضحي له، عند الحاجة بمحبتها للعزلة وللحياة المتواضعة المستترة ولا تعود تطمع في شيء: لا في العظمة ولا في الشهرة ولا في النفوذ، كما انها لا تعود تخشى شيئاً مادام الله قد عبّر عن رضاه.

انها لا تقتدي بتلك النفوس الصغيرة المتخوفة التي تتعلل بتواضع كاذب لتترك الفرصة التي يقدمها الله لعمل الخير تمرّ دون أن تستفيد منها. كما أنها لا تصرّ على رفض الوظائف التي تضعها امامها طاعتها لله ولو كانت لها فيها كرامة و رفعة، بحجة انها ليست بارعة فيها أو أنها تفضّل الحياة المستترة المتواضعة. ولا ترفض، لخوفها من أن تفقد بساطتها وحدودها، أن تتعامل مع أهل العالم وعظماء هذا الدهر وأقويائه و أن تشتهر، عندما

تتطلب الظروف ذلك، لأنها تعرف جيداً أن التراجع في هذه الحال يعني خيانة قضية الله و السعي وراء الراحة الذاتية على حساب مصالح السيد له المجد.

المقالة الثالثة

لا محبة بدون تفان

لما اتى يسوع الى هذا العالم لم يعلم شيئا احب من التفاني. وقد نبتت هذه الزهرة الصغيرة _ ان صحت تسميتها بهذا الاسم _ على الجلجلة عند قدم الصليب وفي الارض التي خضبها دم يسوع. ومنذ ذلك الحين لم تختف هذه الزهرة عن وجه الارض لان هناك اصدقاء يتعهدونها بعناية. انهم يعرفون التربة التي تحبُها والعصارة التي تتغذى منها. يعرفون انها تهرب من مناخ الانانية الجليدي و ترتاح الى مناطق المحبة الالهية الحارة. فمكانها الحقيقي المفضل هو حيث تغمرها محبة يسوع.

وأنتِ ايتها النفوس الملتهبة المتحمسة هل تعرفين هذه الزهرة، هل اعجبت بملعانها و جمالها وتنشقت عطرها؟ ! افلا تريدين ان تُدخلي السرور الى قلب يسوع فتقبليها في قلبك وتتعهديها فيه بعنايتك؟!

المحبة و التفاني زهرتان لجذع واحد وقد نقلهما يسوع من الحديقة السماوية الى ارضنا العاقّة فنمتا فيها و تفرّعتا و تكاثرتا ودخلتا حدائق ا لعظماء وأرض الفقراء الوضيعة. ومنهما تفرّعت في كل مكان فضائل رائعة: من نكران ذات و تواضع وتضحية ووداعة وتسامح. و امتلأت الارض، المقفرة سابقا، بالمستشفيات و مآوي العجزة وملاجئ الاطفال والمدارس و الملاجئ العامة.... وكثر فيها الكهنة و الرهبان والراهبات.

وقد حاول كثيرون من دعاة الهرطقة والانشقاق و أصحاب الافكار البعيدة عن الايمان أن يقوموا بمثل هذه الاعمال لكنهم لم يفلحوا ، فهم يريدون أن يحققوا مشاريع ظاهرها المحبة، بدون محبة تملأ منهم القلب والروح. أما

اعمالهم الناجحة فقد كانت كمنتجات المختبر: ثمرة جهود طويلة ونفقات باهظة، وتقليداً مضحكاً لنتاج الطبيعة الخيّر المدرار.

لا، لا. ليس من تفان بلا محبة، كما انه ليس من محبة بلا تفان. لذا لم تنبت زهرة التفاني الصغيرة في ارض غير مؤمنة لأن الزؤان، زؤان الانانية الوقح، يفترس الارض الوثنية. و المجتمع القديم الذي بلغ اوج الحضارة لم ينتج سوى مسوخ كريهة من الظلم والبذخ والاستعباد.

آه ! كم كان ملائماً ان يأتي يسوع ليبعث هذه الانسانية المسكينة المتفككة في ديجور الهاوية التي تردّت فيها ! آه كم كان ملائماً ان يأتي ويعلم المحبة و التفاني.

المقالة الرابعة

الانانية تعود الى قيادة العالم

كنتَ يا يسوع محبوباً من البشر محبة إلهية ولا تزال قلوب كثيرة نقية تحبك وتتفانى في سبيلك حتى الممات.

ومع ذلك فقلبي ينبض بالاسى لان عدد هذه النفوس الملتهبة محبة يقلّ يوماً بعد يوم إذ أن الانانية تعود الى قيادة العالم ناشرة سمومها في المجتمع بأسره. إنها تنفذ الآن الى الحياة العائلية وتحاول التسرّب الى الكنيسة نفسها. فهل يجد يسوع محبة في العالم متى عاد إلى هذه الارض؟! وانك أينما اتجهت ترى سعياً وراء الملذات وطمعاً وبذخاً مفرطاً واضطهاداً للضعفاء وازدراء بالتعساء ونفوراً من الفقراء.

آه يا زهرة التفاني الصغيرة التي نقلها يوسع الينا من السماء لتجتذب بني ا لبشر بعطرها! انني اراك مزدراة ومفترى عليكِ ومضطهدة، فكيف تستطيعين بعد ان تعيشي في جوّ مشبع بالانانية؟!. اطلبي الى البستاني الالهي أن يردَّك الى الجنائن السماوية لأن الشيطان سكن هنا و الظلام يتكاثف حولنا و البرد يزداد قرصاً والوثنية الشنيعة تعود كشبح بشع مهدّدة بأَن تلفنا بكفن عظيم.

ترأف بنا يا يسوع:" اقم معنا فان المساء مقبل". وقد مال النهار، والليل القاتم يفزعنا باشباحه. فابق معنا.

لا تنتقم ايها السيد الرحيم من عقوقنا المتكرر. لا تنتقم منا فتتركنا لنا، بل انظر إلى هذا العدد الضئيل من النفوس المستقيمة التي هي لك بيننا واشفق علينا. انها قد بذلت ذاتها لمحبتك بلا تحفظ، و هي تتبعك الى أي مكان في الحياة وفي الممات. فهل ترذلها ايها السيد؟! لا.لا. يا يسوع. ولو لم تبق سوى نفس واحدة محبة فانت لن تحجب عنا رحمتك.

أما أنا يارب فقد قرّرت منذ الآن أن استسلم تماما لمحبتك وأكون متفانياً في طاعتك. و سآتيك بقلوب اخرى كثيرة أنقى وأكثر حباً لك لنؤلف جوقاً يرفع إليك في كل حين الشكر و التسبيح.

المقالة الخامسة

التفاني بالصلاة

كل شيء يؤثر في النفس التي استسلمت لله و يسهم في جعل حياتها اكثر خصباً: ان عملها او صلاتها او مثلها. كل شيء فيها يحمل الطابع الالهي و تفيض القداسة منها الى كل جانب و تنسكب على النفوس التي تحيط بها.

ان صلاة بسيطة من نفس نقية ورعة يستجاب لها اكثر من تضحيات و ابتهالات آلاف النفوس العادية. ذلك " لأن طلبة البار تقتدر كثيراً في فعلها"، وقال يسوع لاحدى القديسات "اصدقاؤك هم اصدقائي، واحب من تحبين فاطلبي مني ان انفعهم".

ويسر الله احياناً بان يقدم لامة بكاملها مساعدات خاصة، ويضع أمامها مجالات واسعة لترجع إليه تائبة. لذلك تلاحظ، حيناً بعد آخر، في هذا البلد أو ذاك أن الروح القدس يعمل بقوة وأن هناك تيارات اهتداء إلى الحقيقة لا تفسر و تغييرات عميقة الجذور وتحوّلات فجائية في الرأي العام نحو الكنيسة والدين، دون أن يظهر أي مبرّر خارجي لأيّ منها. بل، على العكس، يكون كل شيء منافياً لتقديراتنا. لكن يوجد في بعض زوايا العالم، نفوس نقية استسلمت بكاملها لمحبة يسوع تصلي لأجل الانسانية جمعاء او لأجل إحدى الامم على وجه التخصيص.

يا لشقاء العالم لو أنه خلا من القديسين، إذ لا تعود هناك قوّة قادرة على إيقاف ساعد العدل الالهي من إنزال العقوبة بهذا العالم الطائش. أما القلب البسيط الطاهر فهو وحده قادر بصلاته أن يوقف غضب الله و يستنزل مراحمه.

في القديم كاد الرب يبيد الشعب العبراني أكثر من عشرين مرّة لو لم يكن موسى يتشفع فيه. وكان الله يقول لعبده: دعنى أعمل ولا تزعجني، و سأجعلك رئيساً لأمة أقوى من هذه لكن موسى كان يصلي الى ان صارت الغلبة للرحمة.

وأنتِ ايتها النفوس العزيزة المستسلمة بكاملها لمحبة يسوع، صلّي لاجلنَا نحن الخطأة، صلي لاجل الامم غير المؤمنة، صلي لاجل الشعوب المسيحية التي كفرت، صلي لأجل وحدة الكنيسة صلي لأجل العالم وألحّي على الله بصلاتك فهو لا يرفض لك طلباً وليس من تأثير في شؤون البشرية يعادل تأثيرك. بهذا تخدمين قضية الخير الاوحد.

إن على النفس ان تتمسك بإيثار كلي بخدمة الصلاة هذه و أن تجعل منها رسالتها ودعوتها في هذه الحياة. فالواقع البشري يدلّ على ان الجميع لا يستطيعون أن يعظوا و يعلموا و يتركوا عيالهم ووطنهم للسعي وراء النفوس الضالة وهدايتها، لكن الجميع يستطيعون الصلاة. هناك من كرّسوا حياتهم لرسالة التضرّع هذه دون سواها ولجأوا الى الاديرة ليستطيعوا القيام بذلك على اكمل وجه. وبما ان الجميع لا يستطيعون الاقتداء ببطولة هؤلاء، فإن بوسعهم إن احبوا ذلك وأرادوه، أن يكرّسوا حياتهم للصلاة لأجل الخطأة وأن يقدّموا لله، في سبيل ذلك، أعمالهم وأتعابهم و مشاكلهم، وهكذا تتحوّل حياتهم كلها إلى صلاة وتنطق كل جوارحهم بالابتهال.

وهناك اوقات يختارها الرب ليدعو النفس كي تزداد دنواً من قلبه و يسكبَ عليها فيض حنانه. إنها لحظات عذبة تعرفها كل نفس نقية. وكلما ازداد القلب بذلاً ونقاء سرّ الرب بأن يكثر تلك اللحظات ويطيلها. وعلى النفس أن تستفيد من هذه الاويقات السعيدة لأنها تكون فيها أشدّ تأثيراً على قلب المعلم الالهي من أي وقت آخر.

فيا ايتها النفس النقية انسي ذاتك و مصالحك الخاصة عندما تكونين بهذا القرب من يسوع _ لأنها في أمان في قلب المعلم _ ولا تفكري إلا بالعالم، بالنفوس المسكينة التي تهلك فيه، بالخطايا العديدة التي ترتكب فيه، و اسألي الفادي الالهي أن يرأف بشعبه. كوني لجوجة في صلاتك إلى أن يستجيب لك. كوني متفانية لأجل المسيحية الخاطئة فتخلّصي، كيهوديت، المدينة المقدّسة من الاعداء الذين يحاصرونَها.

المقالة السادسة

التفاني بالقدوة

يجب ان تتفانى النفس في الصلاة، لان للصلاة تأثيراً كبيراً على الله. كما يجب ان ينعكس هذا التفاني بالقدوة التي تقدّمها للآخرين، لأن للقدوة تأثيراً كبيراً على القلب البشري.

لا شيء يستطيع ان يدفع النفوس الى القداسة كما تدفعها قدوة حياة مثابرة على الفضيلة. فالصديق والرجل الامين لواجباته هما عظة دائمة وحافز للقلوب النقية وتبكيت للمتهاون وتأنيب ودينونة للخاطئ.

إن هذه الحياة المكرّسة لتتميم الواجب اليومي دون سواه، مهما كان خفياً أَو متعباً، وهذه الامانة في القيام بأقل الفروض من غير تراخٍ، وهذا الازدراء العجيب بكل منفعة خاصة وبكل وجهة نظر بشرية محضة... كل هذه النواحي المحبَّبة للفضيلة الحية البناءة الفاعلة فينا تجذب وتستهوي اكثر الناس لا مبالاة. وما يؤثر فيهم بالاكثر هو الفرح الدائم والإتزان في الطبع والوداعة في العمل والاستقامة التي تتحلى بها تلك النفوس التي اسلمت ذاتها لله.

وقد كان ليسوع تاثير عظيم على الذين رافقوه، وكان يأسر بصلاحه وتواضعه كل الذين عرفوه. لقد كان يسوع محسنا إلى الجميع على الدوام حتى لقد ظهرت رسالته و كانها محصورة في عمل الخير: بيد أَن هذا الإحسان الذي لا يكل كان يكتسب الخطأة، فيهدي زكا و يصلح المجدلية ويعيد الزانية و السامرية إلى سواء السبيل. كما أنه كان يجتذب إليه الأولاد والمرضى والارامل والحزانى فيباركهم ويصرفهم معافين و مملوئين بالتعزية.

ما أسماك أَيتها المحبة! فأنتِ تعلمين أَشياء لا يستطيع أَي قلب طيب أن يصمد أمامها. إنك وديعة مراعية ضعف الانسان، مملوءة رقة وتهذيباً، تحترمين كل مخلِص في رأيه وتنفذين إلى العقول المتمردة وتطردين منها كل تهوّر، وتلجين الى القلوب المغلقة وتنقينها من الحقد والضغينة. كل شيء يخضع لصولجانك، حتى أن النفس التي

تتملَّكينها تصبح مقربة إلى كل قلب، إذ لا يستطيع أَحد أَن يقاوم سلطان نفس لا تحيا إلا لتعمل الخير ولتخفف أَثقال الآخرين وتجنبهم الملل و التعب.

نعم! من تراه يعارض نفساً همها الوحيد أَن تُفرح الآخرين وأَن تتحمَّل الضيق والمكاره بلا تبجّح وبكل بساطة، كأنها أَشياء تستحقّها؟! من تراه لا يقبل أن يحب أَمثال هذه النفوس، من لا يخضع لسلطان فضيلتها ومن لا يجتهد في إرضائها بدوره؟! وهكذا، كلما بذلت النفس ذاتها و تناستها، اجتهد الجميع بان يعاملوها بالمثل و أَن يفتكروا بها. وليس الله وحده هو الذي يهتم بها، بل هناك أَيضاً الخلائق التي تضحي النفس بذاتها لأجلهم. إنها، بعد أن تخلَّت عن كل شيء، تجد كل شيء بوفرة أعظم و ضماننة أَثبت. وهذا هو التحقيق الابدي لكلمة يسوع: " من أَضاع نفسه يجدها". وهو لا يجد نفسه فقط بل يخلّص أَيَضاً نفس قريبه. ولأنه تفانى، لأنه بذل حياته لأجل إخوته فهو يرى ذرّية كبيرة. إن ذكر الأناني يمضي معه، أَمَّا ذكرِ الصدّيق الذي عاش للآخرين فيكون مباركاً.

المقالة السابعة

التفاني عن طريق الأمانة في اتمام الواجبات

إن الوقوف موقف المتفرّج إزاء هذا الصراع القائم بين التفاني و الأنانية غير مستطاع، لأن للنفس دوراً يجب أن تلعبه، شاءت أم أب، فقد قال يسوع: "من ليس معي فهو عليَّ، ومن لا يجمع معي فهو يفرّق".

إن من لا يحارب في صفوف المسيح فهو جندي في جيش الشيطان. و من لا يتخلَّى عن كل شيء ليتفرّغ لعمل الخير، يزيد صفوف الأنانيين و أَصدقاء الشر. فكل نفس تستطيع أَن تُدخل تحويلاً في مجرى المعركة فتسهم إما في عقد لواء النصر للخير وإما في رفع راية الشر. وفي هذه المعركة، ليس القادة هم الذين يقومون دوماً بأهمّ الأعمال، فقد يعود الدور الفصل، في أَكثر الأحيان، إلى جنود بسطاء، إلى أشدّ النفوس معرفة بالمحبة ونسيان الذات و التفكير في مصالح الآخرين. تلك هي النفوس التي تُحرز أعظم الانتصارات لان النفس المستسلمة بكاملها ليسوع هي أعدى أعداء الجحيم.

فكم من اهتداءَات أحدثتها النفوس البسيطة التي تقوم بواجب المحبة بتواضع قرب أسرة المرضى في غرف المستشفيات! و ما أعظم التأثير الذي تحدثه في أسرتها فتاة تقية او زوجة مخلصة، او ام مهتمة بخير اولادها.

من لا يتذكر الآن متأثراً قصة القديسة مونيكا التي هدت زوجها وحولت ابنها اغسطينوس الملحد الطائش الى معلم للكنيسة و قديس. من لم يتأثر عند قراءة مذكرات سيدة معاصرة، هي اليزابيت ليسور E. Lesueur التي تفانت لتهدي الى الايمان احد دعاة الالحاد بعد أن تزوجها ليقودها الى الحاده. كم كان إخلاصها وتجردها عظيمين وكم ذرفت من الدموع! وكم بذلت خصوصاً من المحبة لتخلّص نفس زوجها . لقد كانت تلك الزوجة المثالية على صواب عندما قالت:" حسن أَن يفكّر الانسان، و أحسن من ذلك أن يصلّي، لكن المحبة هي فوق كل شيء". أجل، المحبة هي كل شيء لأن فيها الصلاة و التفكير. المحبة هي كل شيء لأنها، كما رأينا، نسيان الذات و التفاني، و ما من شيء يصمد أمام التفاني. فهو السلاح الوحيد المنتصر دائماً لانه سلاح فائق للطبيعة ولا يحسن استعماله إلا القديسون.

أَلا تتشوّقين يا نفسي لتعيشي حياة التفاني هذه؛ ألا ترين أنه ليس هناك أجمل وأقدس من أن يعمل الانسان دوماً على أن ينسى ذاته و أن ينشر الاحسان حوله و أن يقابل الشر بالخير من غير أن يطلب اعترافاً بالجميل أو ينتظر تقديراً؟

إِن بذل الذات بدون تحفظ ووضع كل امكانيات المرء: قواه ووقته وقلبه وعقله تحت تصرّف الآخرين لخدمتهم وتعزيتهم وهدايتهم سواء السبيل، هو هدف لا أسمى ولا أرفع منه. هنا تظهر البطولة والطموح الانسانيين في أقوى معانيهما، هنا، عندما تذوب الذات على مهل في خدمة المصلوب كما تذوب الشمعة على المذبح.

ارى الرؤساء مشغولين في حكم بلادهم، والسياسيين يحاولون تقرير مصير الامم، والشعوب تتنازع التفوّق في العالم فينفقضّ بعضها على بعض بجنون وحشي؛ ارى الناس يجوبون البرّ والبحر ليجمعوا الثروات و يتلفون حياتهم في اعمال شاقة ليصلوا الى مجد باطل. اما انا يا يسوع فلا اريد إِلا ان أحب و اتفانى، و سياستي تنحصر في النمو بالمحبة حتى اتوصّل إِلى بذل ذاتي اكثر فاكثر. صحيح ان طموحي لا حدّ له، لكنه يزدري بمجد العالم، فالمملكة التي اريد ان احكمها هي قلبي. اريد ان يكون توقاني كله اليك، ومطابقاً لرضاك. انا لا أبتغي على هذه الارض، إِلا ان احب واساهم في امتداد مملكة المحبة.

المقالة الثامنة

الله يملأ بالخصب حياة النفس المستسلمة له

التفاني الحقيقي هو ان يكون الانسان بين يدي الله أداة طيّعة. فكلما افرغت النفس ذاتها من كل غاية أنانية، كانت سهلة الاستخدام، و مرنة، ومن ثم جديرة بأن تعاين مجد الله.

إن الخدمة التي يقدمها البشر للقضية الالهية ليست، عادة، تلك التي نلاحظها. فملكوت الله، مع كونه في هذا العالم، ليس من هذا العالم: إنه روحي. ولذا فهو خفي عن الحكمة البشرية. أمَّا ما نظن اننا نرى منه حولنا فهو مجرّد ظواهر لا حقيقة لها. والاشخاص الذين يظهر انهم يحتلون فيه مكانة خطرة و يديرون شؤونه و يعضدون او يحاربون مصالحه، ليسوا الا ظلالاً تروح و تجيء برهة على المسرح ثم تدع المكان لظلال اخرى. ولكن الستار لا يرفع ابداً و يستمرّ تمثيل المشهد دون ان يظهر الممثلون لنا. ومن هذا المشهد اللامحدود لا نرى، نحن المسجونين في افقنا الضيّق إلا تفاصيل ضئيلة. فكيف نتجاسر اذن، ونحن في هذا الوضع ان نبحث في قيمة و أهمية دور كل منَّا في هذه الحياة. فلله وحده أن يعرف ذلك وهو الذي يوجّه الجهد البشري كله إلى هدف واحد.

إننا نخطئ إذ نظنّ أن حياتنا لا فائدة منها وأن أعمالنا مجدبة لأن النجاح لم يكلّل جهودنا. فهناك عظماء عديدون وقفوا ذاتهم لخلاصة الخير إما في العالم و اما في الكهنوت، ومع ذلك باءَت كل مشاريعهم، ظاهرياً، بالفشل. وبوسع كل واحد منَّا حياتهم يحاربون، بلا جدوى، افكاراً سائدة ونفوذاً مسيطراً، و مخططات ضُمن لها النجاح مسبقاً. فكان نصيبهم في كل هذا هزيمة دائمة وهدماً كاملاً لآمالهم المشروعة.

ومع ذلك لم ينتصر احد قط مثل هؤلاء الرجال الذين كانوا دائماً مغلوبين. ولم يحصل احد على نجاح حقيقي مثل هؤلاء الابطال المعيّرين دائماً، الذين طالما صرعهم العنف، ولم يخدم احد قضية التمدن الحقيقي والايمان مثل هؤلاء المغلوبين

دائماً. إن تفانيهم، المجدب في ظاهره، قد كان الثقل الذي امال مع الزمن كفة الميزان الى جهة العدالة المظلومة والحقيقة المثلوبة، و البراءة المضطهدة.

هكذا انتصرت تلك الشعوب التي سحقها طيلة قرون عتوّ ملوك طغاة. فان الدموع و العذابات والاصرار على تحدّي النفي والغرامات و الاستشهاد، فاضت كلها كنهر طال ضبطه تحت الارض، فاندكّ المعقل الذي كان يُعتقد انه لا يتزعزع وقد حُطمت أساساته.

هكذا عاشت ايضاً تلك الشعوب التي طالما تحملت جور جيرانها الاقوياء، واضطُهدت في وطنيتها و شعورها الديني، فسُلخت و شُردت وقُضي عليها ان تئن عاجزة وتبكي مجدها التالد و حريتها السليبة.

هكذا انتصرت المسيحية على الاضطهاد الوثني وقسوة السلطات المدنية وعلى رياء وهرطقة قسم من ابنائها.

هكذا سينتصر يوماً المسيحيون المضطهدون في اعز معتقداتهم و مشاعرهم. فالتضحيات التي بُذلت والدموع التي سُكبت، واعمال التفاني التي تكاثرت في سبيل قضيتهم المقدسة، مع كونها عقيمة في الظاهر، تتصاعد اكثر فأكثر، امام عرش الله، وتحدق به كجيش لا يُغلب. و اذا باولئك الذين كان يعتقد انه قد كتب لهم الهزيمة الدائمة، قد كسبوا لانصر على الكفر وبعثوا الحياة الروحية.

هذه الامور التي تبهر بوضوحها كل متفحّص للوقائع التاريخية العظيمة تتحقق سرياً في حياة كل نفس. فالنفس التي تعتقد أن الإخفاق الدائم مكتوب لها هي التي تحرز أكثر الانتصارات امام الله. و النفس التي تعتبر ذاتها غير نافعة وغير مؤهّلة للاشياء العظيمة، هي التي يختارها السيد لتضع اسس اعماله الاكثر بهاء. و تلك التي تتأوّه سراً لعدم نفع حياتها تصبح سبب خلاص لألوف الخطأة. و تلك التي تعاكَس مشاريعها و يُساء الظن بها و تحطّم حياتها كحجر يُسحق ، تصبح الصخرة التي لا تتزعزع وحجر الزاوية الذي عليه يبني الله صرح مجده.

لا ريب ان هذه النفوس المسكينة لا يكون نصيبها دائماً أن تشاهد بفرح هذا النصر ولا هذا البعث. فقد تترك ارض المنفى هذه و هي تنوء تحت ثقل اخفاقاتها واحلامها المتبدّدة، لكن الله ساهر. وهو سيكافئ تضحياتها و يولي هذا البذار، في اوانه ثمراً يضاهي مئات الاضعاف.

وقد حفظ التاريخ بعضا من هذه الحوادث العجيبة إذ أَننا نعرف كيف أن عمالاً فقراء وبنات جاهلات وراهبات مجهولات ورجالاً لا كفاءة لهم و لا نفوذ ولا خيرات زمنية، قد انشأوا او وسّعوا نطاق اعمال عظيمة تعود على الكنيسة والانسانية بالخير الجزيل.

والى جانب هذه الوقائع القليلة التي اراد الله ان يعرّفنا عليها، وقائع كثيرة بقي محتفظاً بسرها حتى تجاه النفس التي تكون لعبت فيها دور البطولة.

كل نفس مستسلمة للعناية الالهية تصبح مركز تأُثير تنتشر أشعته و تمتد الى ما لا حد له. ولذا فإن صلاة القلب النقي أو مَثله أَو عمله تكوِن إِشعاع نعمة حوله يمتد تأُثيره إِلى عدد متزايد دوماً من النفوس و يتّسع هذا التأثير كلَّما ابتعد عن المصدر الذي ينبعث منه.

أَمَّا علاقات النفوس في ما بينها و تفاعلها المتبادل، والتاثير الذي تمارسه كل واحدة على الاخرى لناحية الخير أو الشر، فهذا كله نكاد نجهله تماماً. لكننا نعرف فقط وعلى وجه العموم، أن الله يقدّس الواحدة بالاخرى و انه يمنح النفوس الضعيفة الخاطئة النور و القوّة بصلوات النفوس العزيزة عليها؛ بيد أن تفاصيل هذه التأثيرات الخفية وهذه الشركة القوية تبقى مغلّفة بالحُجب.

ما ابهى ان يعرف المرء دقائق تاريخ حياة ولو نفس واحدة وأَن يتبيَّن طاعتها للمشيئة الالهية وخصب نتيجة بذل ذاتها للّه؛ و ان يكتشف مالها من تأثير فائق للطبيعة في كل نفس تتصل بها، و ان يتابع نمو هذا التأثير و تشعباته التي تكاد لا تُحد!

ولكن ماذا ينفع كل هذا؟ انه لا يؤول إِلا الى إِشارة فضول باطل. فحسبي يا يسوع، ان اعرف انني اخصك بكاملي، بينما تهتم انت بجعل حياتي مخصبة، كل ذلك لمجد اسمك القدوس.

الخاتمة

السيدة العذراء مثال حياة الاستسلام لله

ان سر قداسة جميع الأبرار كان في بذل ذواتهم لله من كل قلوبهم، و في إِتمام مشيئته والاستسلام لعنايته. أما النفس التي تفتش عن غير ذلك او عمَّا يجاوزه فتقع في الخطأ و الضلال.

و قد سلك كل قديسي العهدين القديم و الجديد هذه الطريق التي تؤدي وحدها الى القداسة التي لا تعني بالضرورة اجتراح المعجزات و العجائب الخارقة.

و ليس بين الخلائق الطاهرة من يعادل في قداسته والدة الاله. و مع ذلك فقد كانت حياتها بسيطة جداً. فهي تمر بكل احوال النساء اللواتي في طبقتها. إِنها تحيا وتنمو وتتعلم كالاولاد الذين من عمرها. هي ربة بيت و أم تتمّم واجباتها في كل من الحالين و تذهب الى الهيكل للتطهير كالنساء العاديات و تزور اورشليم كل سنة حسب عادة اليهود.

و في ما تبقّى فهي تهتم بداخل بيتها المتواضع. و يوسف ، يساعده يسوع الشاب، يتدبر حاجات الاسرة. التي كانت تعمل كلها في دكان النجارة.

وبعد موت يوسف يعمل يسوع وحده على مساعدة أمّه الارملة. وفي كل هذا ليس ما يستلفت النظر أويفتن المخيلة والانجيلي لا يجد ما يسجله في مدة عشرين سنة من حياة مريم أية اعجوبة او عمل خارق بل ولا أي حادث بارز. بل يقول ببساطة: وكان يسوع ينمو في السن والحكمة وكان خاضعاً لأبويه.

ولم يكن بين اقرب اقارب مريم وم عارفها من يعرف سرّ امومتها الالهية غير أسرة اليصابات. لم يكن اذن في سلوكها ما يدل على سامي مكانتها. لذا كان اليهود يعتبرون يسوع ابناً عادياً لها وكانوا يعتبرونها امرأة لا تتميّز في شيء عن افراد بيئتها الاجتماعية.

بل اننا لا نرى، قبل قيامة يسوع ان أخلص اصدقائه، بما فيهم الرسل كانوا يقدرون الكنز الذي يمتلكونه في شخص والدة الاله. ولم تنفتح اعينهم إلا بعد حلول الروح القدس، فخصّوا ارفع الخلائق و احنّ الامهات بخالص محبتهم البنوية.

لقد اراد يسوع ان تكون حياة عذراء العذارى بسيطة خفية لأنها ستكون مثالاً لحياتنا. وكذلك لم يشأ بأن يجنب أمّه النقية مشاركته العذاب وهو معلّق على الصليب و رضي بأن تقاسي الاضطهاد والألم المرير لأنه اراد ان يجعل منها ام الاوجاع، و اكثر من شقي من الخلائق، حتى تكون لنا في أحزاننا وفي المصاعب التي لا تفارقنا في حياتنا على الارض، مثال خضوع و استسلام كاملين.

والقول الذي لفظته عند شعورها باعظم فرح يخالج قلبا بشرياً، سوف تعيده في ما بعد في خضمّ قلقها الهائل: " ليكن لي بحسب قولك" . ففي هذه الكلمات القليلة كل سرها، كل قداستها: انها بذل ذاتها التام لله، انها اكمل واوفى إستسلام لعنايته، إنها أرق وأعظم محبة نحو ابنها و الهها.

فيا أُمّ الله، علمينا البساطة . أهلينا لنرجع و نصير اطفالاً نتعلم منك كل خضوع وطاعة و إستسلام لله ليكون سرّ حياتنا كلها، كما كان حالك: محبة يسوع وعمل مشيئته و تقبّل كل شيء من يديه.

وأما ما تبقى، فيضمنه لنا يسوع بشفاعتك. آخذاً على عاتقه همومنا و اثقالنا و متداركاً كل حاجاتنا و منقذاً إيانا من كل المصاعب، وعلى الأخص: غافراً لنا، على الدوام، عقوقنا و خطايانا.

نعم! إن كل حياتنا يجب أن تنحصر في شيء واحد: محبة الله و البوح له، بلا انقطاع، بهذه المحبة إلى أن تتمّ لها السيطرة على قلوبنا سيطرة تامة.

و الحمد الله اولاً و آخراً

عالم يعلن لماذا يؤمن بالله

أ. كرسّي مورسّن

عميد الندوة العلمية في نيويورك سابقاً

لسنا إلا في مستهل العمر العلمي، و مع ذلك كل معرفة جديدة، و كل ازدياد في سطوع النور، يأتينا ببرهان جديد على ان عالمنا نتاج عقل خالق. وهكذا يستند الايمان الى المعرفة، و في كل مرحلة يشعر العالم بأنه اقرب الى الله.

أما أنا فقد وجدت في العلم سبعة براهين رئيسية تسند ايماني.

فالريضايات (الحسابية) تقدم لي البرهان الاول الذي لا رد عليه. هذا البرهان تستطيع انت نفسك ان تسوقه بطريقة عملية. ضع في جيبك عشر قطع من النقود او من حجارة اللعب مرموقة من الواحد الي العشرة. ثم حركها و خضخضها جيداً لتخلطها. وبعد ذلك جرب ان تخرجها من جيبك، مبتدئاً من القطعة الحاملة رقم 1 الى الحاملة رقم 10 بالتتابع. وكل مرة تخرج قطعة عد فضعها في جيبك وحرك القطع قبل أن تخرج اختها. فمن الوجهة الحسابية ليس لك إلا حظ واحد من عشرة بان تخرج لاول دفعة القطعة رقم 1؛ وحظ واحد من مئة بان تسحب بالتتابع الرقم 1 ثم الرقم 2؛ وحظ واحد من ألف بأن تسحب بالترتيب الرقم 1 ثم 2 ثم 3. أما حظ سحب القطع كلها في ترتيبها من الواحد الى العشرة فواحد من عشرة مليارات و انت ترى ان هذا الحظ زهيد خيالي!

لنجتهد الآن ان نطبق هذا البرهان نفسه على الشروط التي اتاحت ظهور الحياة على الارض، فنضطر ان نقر، من الوجهة الحسابية، بأنه لم يكن أي تتابع اتفاقي على طريق الصدفة، قادراً على أن يجمع تلك الشروط ليتيح ظهور الحياة.

الشرط الاول: ان الارض تدور على محورها بسرعة 1600 كيلومتر في الساعة، عند خط الاستواء. لنفرض ان هذه الدورة تصير بطيئة عشرة أضعاف عما كانت، فيطول نهارنا عشرة اضعاف و من ثم تحرق حرارته النباتات، و ما يبقى منها يعرض كثيراً للموت من الصقيع في ليال طالت مدتها عشرة اضعاف عما هي الآن.

شرط آخر لوجودنا: للشمس، مصدر حياتنا، حرارة ترتفع درجتها في سطح الشمس الخارجي الى 5500 درجة سنتغراد. و الارض بعيدة عن الشمس المسافة اللازمة لتسمح لتلك النار الدائمة بأن تدفئنا على قدر ما نحن بحاجة الى تدفئة. فلو كانت الشمس لا تعطينا إلا نصف اشعاعاتها الثمينة لادركنا الصقيع ولو نلنا من الشمس علاوة على اشعاعاتها الحاضرة نصف تلك الاشعاعات أيضاً لاحترقنا.

اما فصول السنة، فهي نتيجة انحراف الارض عن محورها انحرافاً مقدار زاويته 23 درجة فلو لم يكن هذا الانحراف، لاتجه تبخر مياه البحار اتجاهين فقط، أي الى الشمال والى الجنوب، ولتجمعت في القطبين تدريجاً قارات فسيحة من الجليد.

ثم ان القمر الذي يدور حول أرضنا هو الذي يشرف على حركات البحار. فإذا فرضنا ان القمر يدنو من الارض ثمانين ألف كيلو متر، وجب ان يحدث مرتين في كل يوم مد جبَّار يغطي قارات بكاملها.

و لننظر الآن الى قشرة الارض، ولنفرض انها تزداد كثافة ثلاثة امتار فقط. حينئذ يزول من ارضنا الاوكسجين الذي لا بد منه لكل حياة حيوانية. و اذا فرضنا عكس ذلك ان الاوقيانوسات يزداد عمقها متراً أو مترين عما هو الآن، لوجب أن تزول الحياة النباتية، لفقدان الكربون (الفحم) و الاوكسجين

فهذه الحوادث، وغيرها كثيرة، تدل على انه لم يكن ثمة حظ واحد من مليارات و مليارات لظهور الحياة على كرتنا الارضية لو كان هذا الظهور نتيجة الصدفة و الاتفاق.

و أجد برهاني الثاني في الوسائل والحيل التي اعطيت للكائن الحي ليظل حياً. ففي هذه ايضاً يظهر بجلاء حضور عقل قد سبق فدبر كل شيء.

ان الانسان لم يسبر بعد سر الحياة. فهو لا يعرف ما هي الحياة. الحياة ليس لها وزن ولا امتداد، ومع ذلك لها قوة عجيبة! فجذر ضئيل بوسعه ان يفسخ صخرة صماء. وقد ظفرت الحياة بالهواء والأرض والماء و مدت سيطرتها على هذه العناصر، و الزمت المادة بان تنحل و أن تعيد تركيب عناصرها على نحو جديد.

الحياة نحات يرسم كل هيئة. الحياة فنان يرسم الاوراق و يلون الازهار. الحياة موسيقار يعلم الطيور انغامها الحبية والحشرات تجاوبها المتبادل. الحياة عالم في الكيمياء يولي الثمار و الافاوية طعمها اللذيذ، و الورود عطر

المنعش. الحياة تنتج السكر من فحم و ماء. هي التي انتجت الخشب و حررت من عقالات النبات الاوكسجين الذي يقدم للحيوانات انفاس الحياة.

انظر الى نقطة من البروتوبلاسما: انها شفافة ولا تكاد ترى، لكنها قادرة على الحركة، تستقي نشاطها من الشمس. هذه الخلية الفريدة، هذه القطرة الصغيرة العكرة تحوي ضمنها جرثومة الحياة التي تنعش جميع الكائنات، الكبيرة والصغيرة. هي أَقوى من اشجارنا و حيواناتنا و شعوبنا كلها معاً، اذ منها خرجت كل حياة.

فمن ذا الذي وضع الحياة على ارضنا هذه.

هوذا الآن برهاني الثالث: ان سلوك الحيوانات يعلن ببلاغة وجود إِله خالق مبدع جواد بث فيها غريزة لولاها لكانت عاجزة كل العجز تماماً.

يقضي حوت سليمان الصغير سنين و سنين في البحر، وفي ذات يوم يعود الى المياه العذبة حيث كان منشأه. لنلاحظ حوتاً من هذا النوع يذهب صعداً في نهر، فنراه يلازم ضفة النهر حيث تصب الساقية التي ولد فيها. فما هو الشيء الذي يقوده هكذا ويعيده الى نقطة الانطلاق تلك بمثل هذه الدقة؟ وعلى سبيل الاختبار جرب ان تضع ذلك الحوت في ساقية غير التي ولد فيها والتي يطلبها، فيعلم حالاً انه قد ضل سبيله، و يجاهد ليعود الى النهر و منه يصعد الى الساقية التي ولد فيها ليقيم هناك سعيه ويلاقي حتفه كما حدد وقدر له.

وسر الحنكليس اغمض من ذلك بكثير و اصعب جلاء. فعندما تكبر هذه الخلائق المدهشة، تغادر الغدران والانهار التي كانت تعيش فيها؛ ثم تأخذ كلها، أَياً كان مصدرها، في سفر طويل نحو لجة او هوة بحرية تبعد قليلاً عن جزر البرميد في المحيط الاطلسي. ولابد لها لكي تصلها ان تقطع في البحر أُلوفاً من الاميال. فمتى وصلت الى بحر السرغاس تتزاوج هناك و بعد ان ينقف بيضها تموت. حينئذ يشرع الحنكليس الجديد الذي يجهل كل شيء من الدنيا سوى تلك المسافات المالحة المحيطة به، في سفر جديد؛ بالعودة في الطريق عينه الذي سلكه منجبوه و يصل لا الى الشواطئ البحرية التي سار منها آباؤه فحسب، بل الى السواقي الصغيرة عينها و الى الغدران التي انطلقوا منها. ولم يصطد قط يوماً حنكليس اميركي الاصل في اوروبا، ولا أُوروبي المنشأ

في أَميركا. بل ان الطبيعة قد سبقت فدبرت كل شيء، فأخرت بلوغ الحنكليس الاوروبي سنة كاملة ليكون له عند سفره البلوغ و الزخم الكافي الضروري لسفره الطويل. فمن تراه اعطى الحنكليس الاندفاع الذي يقوده؟

أَما برهاني الرابع فاجده في الانسان. فإِن للانسان ما يسمو به على غريزة الحيوان، وه و عقله. لم يؤد قط حيوان برهاناً على انه قادر ان يعد من الواحد الى العشرة او انه يدرك معنى الرقم عشرة. فغريزة الحيوان تشبه صوتاً واحداً من الناي، عجيباً لكنه محدود. اما دماغ الانسان فيحتوي جميع آلات الجوقة الموسيقية. لا حاجة الى الافاضة في شرح هذا البرهان، فاننا بفضل عقلنا نستطيع ان نعرف ما نحن، لاننا قبس من العقل الاسمى.

تقدم لي برهاني الخامس عجائب جراثيم الحياة في الانسان ففيها أَرى ان كل حياة مدبرة سابقاً.

جرثومة الحياة صغيرة جداً. تصور أَيها القارئ ان بوسعك ان تجمع الجراثيم التي هي في أَصل البشر سكان الارض كلها في "كشتبان" أَي قمع الخياط. ونحن نعلم ان كل خلية حية تحتوي واحدة من تلك الجراثيم. فهذه الجرثومة هي التي تحدد ميزات كل كائن بشري، و كل حيوان، و كل نبات. تصور اذن قمع خياط يحتوي في داخله ميزات ثلاثة مليارات من الناس! هذه واقعة راهنة لا مندوحة عن التسليم بها.

في تلك الجرثومة في تلك الخلية أَي الوحدة التي تحوي الجراثيم وتنقلها، يبتدئ تطور الكائن الحي. فاذا كانت هذه الجرثومة التي لا تكاد ترى بالمجهر (المكرسكوب) تدير حياة ارضية برمتها فذلك دليل حكمة و بصيرة ليست إِلا في العقل الخلاق دون سواء. وليس هناك تعليل آخر يفسر الاحداث الحقيقية الواقعية التي من هذا القبيل.

البرهان السادس يأتي من العناية، أَي من تلك الحكمة السامية التي تسوس الطبيعة كلها و التي لا يمكن ان يكون مصدرها إلا الله.

نقل منذ سنوات كثيرة الى اوستراليا نوع من الصبار ليجعل من اغراسه سور للبساتين. و لم يكن لهذا الصبار اعداء بين الحشرات في اوستراليا. فانتشرت النبتة الجديدة في البلاد انتشاراً مقلقاً، و امتد في اراض تضاهي مساحة انكلترا

كلها. فانزلت الخراب بكثير من المزارعين و طردت من القرى و المدن سكاناً برمتهم. فجال المكافحون العلماء في العالم كله ليددوا وسيلة للحد من طغيان ذلك الصبار الهائل. و انتهى بهم المطاف الى اكتشاف حشرة لا تتغذى إلا من ذلك الصبار اللعين دون سواه من النبات. و كان ان الحشرة الجديدة لم تمسها ولم تؤذها حشرة واحدة في اوستراليا. و اليوم كاد يزول من البلاد الصبار المذكور، وبادت معه تقريباً الحشرات التي أتي بها لتأكله، وما بقي من تلك الحشرات يكفي لمكافحة الصبار الطاغي ووضع حد لطغيانه.

وهكذا نرى في الطبيعة، في كل مكان، هذا التوزان المدبر سابقاً بين الانواع.

لماذا لم تطغ على الارض الحشرات التي تتكاثر بسرعة هائلة؟ لانها ليس لها رئات مثل الانسان. فان الحشرات تتنفس بواسطة قناة أَو أُنبوبة أَو قصبة تنوب عن الرئتين. ومتى جاوزت الحشرة قامتها العادية لا تنمو تلك القصبة فيها على قدر نمو سائر اجزاء جسمها. لذلك لم يكن البتة حشرات جبارة. فهذا النظام المخالف لنظام سائر الحيوانات هو الذي حال دوما دون نمو الحشرات. ولولا هذا التدبير الجهازي في الحشرات لا نقرض الانسان ولاشك عن وجه البسيطة. تصور لو انك تصادف دبوراً بحجم أَسد!..

هوذا الآن البرهان السابع. انه وحده كاف لبيان وجود الله: ان الانسان قد بلغ الى تصور فكرة ما هو إلهي.

ينبغي لتصور وجود الله قوة إلهية حقاً. وهذه القوة لم تعط إلا للانسان، وهي تسمى المخيلة فانه بفضل المخيلة وقدرتها، قد توصل الانسان وحده الى جمع شهادات بشأن ما هو غير مرئي. المخيلة تفتح امامنا مجالات لا حد لها. بفضل هذه القوة الموضوعة في خدمة العقل يتعلم الانسان ان يكتشف اينما وجد، دليلاً على حقيقة سامية هي ان السماء هي في كل مكان، وان السماء هي كل شيء، وان الله في كل مكان، وان الله حاضر في كل شيء. وهو في قلبنا حاضر حضوراً يسمو على حضوره في أَي مكان آخر.

وهكذا تلتقي الحقيقة العلمية وشهادة العقل، في اعلان ما جاءَ في المزامير . " السماوات تذيع مجد الله، والفلك يخبر بأعمال يديه".

حـــــول

اشتراك الكاثوليك والارثوذكس

في الاسرار

ليس مثل وحدة الكنيسة أمر ضروري و مشتهى وكريم عند الله. فجدير بنا ان نجعلها موضوع تأملاتنا وصلواتنا المستمرة، كي نُعطى نعمة اكتشاف الطرق الجديدة التي تؤدي الى تحقيقها.

فالسبل التي سُلكت حتى اليوم قد اتضحت، في الواقع، سبلاً وعرة، ويبدو من المستحيل، بشرياً، أن تُحَلَّ الخلافات العقائدية في مستقبل قريب عن طريق التفاوض و النقاش اللاهوتي.

لذا، قد لا يكون من العبث ان نحاول استمالة القلب الالهي بسلوكنا طُرق المحبة الانجيلية التي هي "حماقة وجهالة عند الناس". فجهالة الانجيل كفيلة في نظري ان تستدرَّ لنا نعمة الوحدة اكثر من دبلوماسية المساومة وتعديل المواقف الخارجية.

اني انطلق هنا من أمرٍ جلي لكل من يقف باخلاص أَمام الله، وهو ان للكنيستين الكاثوليكية و الارثوذكسية أَسراراً واحدة، و انجيلاً واحداً، و كهنوتاً واحداً، و عقيدة في الخلاص واحدة؛ فالاختلافات القائمة بين الكنيستين لا يمكنها أذن ان تكون اختلافات جوهرية، ولا ريب في أَنها تُحزن قلب المسيح. فيعسر عليَّ التصديق ان هذه الاختلافات قد برَّرت، رغم ذلك، انقطاع شركة الاسرار بين الكنيستين و استمرار هذا الانقطاع لابل انها بررت خصومة الشعبين المسيحيين، والقوانين و الانظمة الكنسية التي أَقامتها و تقيمها السلطات الدينية حاجزاً للتفريق بين الشعبين.

فالمسائل التي تفرّق بين الكاثوليك و الارثوذكس، لكونها تعود الى اختلاف في العقلية و طرق التعبير اكثر مما هي اختلاف حول العقيدة المسيحية الاساسية، لا تؤثّر مطلقاً في المواقف الروحية العملية التي يتخذها مسيحيو كلٍّ من الكنيستين تجاه الله وتجاه القريب.

فلئن رفض الارثوذكس عقيدة المطهر إلا انهم يصلّون لأجل الراقدين كي يمنحهم الله الراحة و النور الابديين. ولئن رفضوا اعتبار الحبل بمريم العذراء بدون خطيئة أَصلية جزءاً من العقيدة إلا انهم يمجدون بتولية العذراء و أُمومتهم الالهية اللتين ترفعانها فوق الشاروبيم، و تضعانها بلمعان طهارتها في مجدٍ يفوق بلا قياس مجد السارافيم.

وإن رفضوا زيادة " والابن" على دستور الايمان إلا انهم يؤمنون بأن الروح القدس يرسله الابن و يعبدون الثالوث المحيي، ينبوع كل نعمة، المعلَن من الكلمة والمسجود له بالروح.

وأما أولولية أُسقف روما و عصمته فلا يرفضونهما إلا بمقدار ما تبدوان مناقضتين لمجمعية الكنيسة و أصالة النظام الاسقفي فيها. ثم ان بين كبار اللاهوتين الكاثوليك من يجاهر بأن الارثوذكسيين لم ينحرفوا في كل هذه الامور عن التقليد القديم بل توقفوا عند الحد الذي بلغه بشأنها تطور اللاهوت في الشرق في القرن العاشر فيما الكنيسة الكاثوليكية في نظرهم قد تابعت ذلك التطور دون ان تبدل معناه؛ وهذا يعني ان مواقف الكنيستين، من وجهة النظر هذه، هي واحدة في الاساس رغم تباينها الظاهري. و اذا كان الامر كذلك فكيف نبرّر تبادل الحرم بين الكنيستين و بمثل هذه القسوة، فيما كل منهما توزع مسيحاً واحداً و كهنوتاً واحداً و أسراراً واحدة.

أفكثير إذن ان نأمل ان تزول الاختلافات بفعل وحدة القلوب التي يُلحِم بينها، بشكل فائق الوصف، الاشتراكُ في أَسرار المسيح الواحد؟ وإذا كان التاريخ شاهداً على أَن شَقّ تلك الاختلافات ما فتئ يتّسع منذ انقطاع الشركة بين الكنيستين، فلماذا لا نأمل من المسيح ان يَنتج، عن إعادة شركة الاسرار بينهما، زوال تلك الاختلافات و تحقيق الوحدة الكاملة؟

فكم من ارثوذكسي قد يجد معونة روحية لو أُتيح له ان يعترف و يتناول في الكنائس الكاثوليكية. وكم من كاثوليكي قد يكتشف كنوزاً روحية تقرّبه من اخوانه الارثوذكس لو أَمكنه ان يتناول و اياهم من كأس واحدة؟ بل كم يكون سرور المسيح عظيماً إذ يرى الكاثوليك و الارثوذكس قد انتهوا الى اكتشاف وحدتهم في جسده ودمه، بعد عشرة قرون من الانفصال والمماحكات؟

لست أَدري من يكون الخاسر في جهالة المحبة هذه: فالمسيح والحقيقة_ وحقيقة المسيح هي محبة _ هما الرابحان. هذا، على كلٍّ، ما بدا لي بكل إِخلاص أَمام المسيح، في الصلاة وفي التأمل.

جورج ناصيف الريّس

صلاة من أجل وحدة الكنائس المسيحية

أَيها الرب يسوع يا من في عشية موتك عنَّا صليت لأجل تلاميذك كي يكونوا مكملين في الوحدة كما أَنت واحد مع الآب، أَعطنا أَن نتحسس بأَلم وصمة انقساماتنا.

أَعطنا أَن نواجه بصراحة و أَن نطرح بشجاعة ما يَكمُنُ في كل منَّا تجاه اخوتنا الآخرين من لامبالاة وحذر و معاداة.

هب لنا أَن نلتقي جميعنا فيك لكي تصعد باستمرار من نفوسنا و شفاهنا صلاتك أَنت لوحدة المسيحيين على الوجه الذي تريد وبطرق انت تعرفها.

و بما انك المحبة المتجسدة اهدنا إِلى معرفتك أَنت الصِراط المؤدي إِلى الوحدة في اطاعة محبتك وحقك، آمين.

الله محبة

نقدم الى الرب هذا الابتهال:

_ من اجل وحدة الكنائس المسيحية و اتحاد المؤمنين بالرب في العالم واهتداء الغير المؤمنين.

_ من اجل زيادة عدد بيوت الله المقدسة وعدد رجال الدين للقيام بالخدم الالهية.

_ من اجل إِشاعة المحبة في العالم و تنمية الفضيلة.

_ من اجل ازدهار الرهبنات و المؤسسات الخيرية: المدارس، الجمعيات، المياتم، الملاجئ و المستشفيات.

_ من اجل إِصلاح المحاكم الروحية والمدنية.

_ من اجل حفظ لبنان و سائر شقيقاته البلدان العربية والعالم اجمع من كل سوء.

_ من اجل حفظنا وحفظ من يخصنا و توفيق اعمالنا الروحية و الزمنية.

_ من اجل راحة نفوس آبائنا و اخوتنا الراقدين على رجاء الحياة الابدية.

محتويات الكتاب

مقدمة الناشر

القسم الاول

المبادئ الاساسية لبذل الذات

الفصل الاول

من العدل ان نبذل ذاتنا لله

المقالة الاولى _ الله مبدأ الاشياء كلها 16

المقالة الثانية _ الله غاية الاشياء كلها..... 18

المقالة الثالثة_ الله هو العلة المثالية لكل الاشياء..... 20

المقالة الرابعة _ خلاصة الفصل الاول..... 23

الفصل الثاني

من الحكمة ان نبذل ذاتنا لله

المقالة الاولى _ ان الله يهتم بتقديس النفس المستسلمة اليه.. 14

المقالة الثانية _ ان الله يضع حكمته و قدرته في خدمة النفس المستسلمة له..... 16

المقالة الثالثة_ عمل الله في النفس مليء بالاسرار..... 18

المقالة الرابعة_ ان الله يصنع العجائب في النفس المستسلمة له..... 20

المقالة الخامسة _ ان في كلمة الله وحده مثال قداسة النفس..... 23

المقالة السادسة _ يسوع وحده يعلم المقام الذي تحتله النفس في جسده السري..... 25

المقالة السابعة_ ان الروح القدس ينوّع فعله كما يشاء، في النفوس المستسلمة له..... 27

المقالة الثامنة _ كل شيء يساعد على تقدم النفس البسيطة، بإرشاد الروح القدس..... 29

الفصل الثالث

من السهل ان نبذل ذاتنا لله

المقالة الاولى _ تخطئ النفس اذ تبالغ في تصورّ مصاعب الحياة الروحية..... 31

المقالة الثانية _ يكفي كلّ يوم همّه..... 34

المقالة الثالثة _ على النفس المستسلمة لله ان تتجنب الهموم الباطلة 36

المقالة الرابعة _ ان الله يعلم بذاته النفس الحرّة..... 38

المقالة الخامسة _ لكي نبذل ذاتنا لله، حسبنا ان نحبّ..... 40

المقالة السادسة _ حسبنا ان نريد المحبة لتكون لنا..... 42

المقالة السابعة _ ان الله يقابل بذل النفس، ببذل ذاته..... 44

المقالة الثامنة _ بذل الذات يحوي ممارسة كل الفضائل 46

القسم الثاني

ممارسة تسليم الذات لله

الفصل الاول

ممارسة تسليم الذات على الوجه الاكمل

المقالة الاولى _ بمَ يقوم فعل بذل الذات..... 49

المقالة الثانية _ يجب ان تتم النفس فعل بذل الذات بكل ما تستطيع من الكمال..... 51

المقالة الثالثة_ تمرين بذل الذات..... 53

المقالة الرابعة _ المصاعب التي تلاقيها النفس في تمرين تسليم الذات..... 55

المقالة الخامسة _ عادة بذل الذات..... 57

المقالة السادسة_ بلوغ النفس كمال ممارسة بذل الذات..... 59

المقالة السابعة _ بذل الذات والهفوات العارضة..... 62

المقالة الثامنة _ العقبة الكبرى في حياة بذل الذات لله..... 64

الفصل الثاني

ممارسة التسليم وقت الشواغل المختلفة

المقالة الاولى _ ممارسة بذل الذات وقت الصلاة 66

المقالة الثانية_ ان الله يقود بذاته النفس البسيطة في مسالك الصلاة..... 69

المقالة الثالثة _ ممارسة بذل الذات في التمارين الروحية..... 72

المقالة الرابعة_ ان النفس المستسلمة لا تهتم في تمارينها الا لترتيب الله..... 74

المقالة الخامسة _ النفس المستسلمة لله في علاقاتها مع العالم..... 76

المقالة السادسة _ النفس المبذولة لله تتمتع بحرية مقدسة..... 79

المقالة السابعة _ بذل الذات في غمرة الاشغال..... 81

الفصل الثالث

ممارسة بذل الذات ابان التجارب و المحن

المقالة الاولى _ بذل الذات و التجربة الداخلية..... 85

المقالة الثانية _ يجب ان تتعالى النفس النقية عن المحنة عينها..... 87

المقالة الثالثة_ يجب على النفس المستسلمة للّه..... 89

المقالة الرابعة _ تصرّف النفس ابان الاضطهاد..... 91

المقالة الخامسة_ بذل الذات ابان المرض..... 94

المقالة السادسة _ بذل الذات وقت الموت..... 96

القسم الثالث

نتائج بذل الذات

الفصل الاول

حياة محبة

المقالة الاولى _ محبة متبادلة بين يسوع و النفس..... 100

المقالة الثانية _ اللقاء العذب بين يسوع و النفس في القربان المقدس..... 102

المقالة الثالثة_ الخدام الامناء..... 104

المقالة الرابعة – الاصدقاء المسارّون..... 106

المقالة الخامسة _ابناء الله..... 109

الفصل الثاني

حياة نسيان الذات

المقالة الاولى _ معنى نسيان الذات 112

المقالة الثانية_ كيف تنسى النفس البسيطة ذاتها في كل شيء..... 114

المقالة الثالثة_ النفس البسيطة تحب الصليب 116

المقالة الرابعة _ كل شيء يدعو النفس الى ان تنسى ذاتها..... 118

المقالة الخامسة _ المحبة تساعد على نسيان الذات..... 120

المقالة السادسة_ كلما زادت النفس في نسيان ذاتها، زاد اعتناء الله بها..... 122

المقالة السابعة_ كلما زادت النفس في نسيان ذاتها، زاد تفكير الله بها..... 124

الفصل الثالث

حياة التفاني

المقالة الاولى _ ما هو التفاني..... 127

المقالة الثانية_ الله يوجد في النفس في تفانيها..... 129

المقالة الثالثة_ لا محبة بدون تفان..... 131

المقالة الرابعة _ الانانية تعود الى قيادة العالم..... 133

المقالة الخامسة _ التفاني بالصلاة..... 134

المقالة السادسة_ التفاني بالقدوة..... 136

المقالة السابعة _ التفاني عن طريق الأمانة في اتمام الواجبات..... 138

المقالة الثامنة_ الله يملأ بالخصب حياة النفس المستسلمة له..... 140

الخاتمة.....
143

عالم يعلن لماذا يؤمن بالله.....
145

حول اشتراك الكاثوليك و الارثوذكس في الاسرار.....
150

صلاة من اجل وحدة الكنائس المسيحية.....
153